



الأيام المضمورة



مسرحية



لتصميم الخراف : عاي مولا

للبعد الله ونولس

الأيام المختومة

« مسرحية »

الأماي

: كنت في السادسة من عمري، حين غابت أمي يومين، عادت بعدهما، ومعها امرأة عجوز شديدة الضعف والهزال. في البداية خفت منها، ولكن حين تمليت وجهها، وجدته مضيئاً وأسراً، لا تشع العين من النظر إليه. قالت لي أمي.. هذه جدتك، وطلبت مني أن أقبل يدها، فأمسكت تلك اليد المروقة الباردة، وطبعت عليها قبلة سريعة. وكانت أمي تواصل كلامها قائلة.. هذا هو العزاء الذي تركه لي قبل أن يُستشهد. طبعاً كانت تقصدني، وتقصد أبي. وأذكر أن جدتي أصرت أن يُمدَّ فراشها على الأرض. وخلال فترة لا أعرف كم دامت، تعودت أن أراها دائماً متمددة على ظهرها، ويدها معقودتان فوق بطنها. وكانت لا تكف عن التمتمة، وقليلاً ما تأكل أو تتحدث. ورغم أن لدينا أقارب كثيرين، سواء في الشام أو في بيروت، فإن أحداً لم يزرنا طوال وجودها في بيتنا.

فيما بعد... مع نمو إدراكي وفضولي، أيقنت أن في العائلة دُملاً يتستر عليه الجميع. وأدركت على نحو غامض، أنني لن أستقر في اسمي وهويتي إلا إذا كشفت الدُمْلَ وفاقأته. بدأت البحث مع أمي. ماطلت كثيراً، وتهربت طويلاً. وفي النهاية.. حكّت لي عن ذلك الصباح.

فصل الأرق والتطير

(تبدو ليلى، وهي صبية جميلة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، منهمة في تنظيف صالون البيت. إنها تؤدي عملها بخفة ومرح. ليس للأمكنة كثافة واقعية. وسيكون على الشخصية، أن تضع قطع الأثاث، وهي تصفه، أو تستخدمه.)

: ذلك الصباح، كنت أنظف الصالون استعداداً للمناسبة، التي هيأناها لأبي. كنا نسكن في بناية حديثة بُنيت على الطراز الإفرنسي. الأبواب والنوافذ عالية، تجعل المرء يشعر أن الفضاء واسع، وأن الهواء أفر. وكان لدينا غرامفون، وعدد كبير من الأسطوانات. ذلك الصباح، كنت أنظف الصالون، وكان المرح يملأ أعطافي. وبعد قليل، أطلت أمي وكأنها صبيح جديد. كانت في أواخر الثلاثينات، ذات جمال أسر، وفنتة محيرة. آه.. كم كنت متعلقة بها! وحين اقتربت مني، لاحظت أنها متعبة، وأن الأرق قد ترك بصمات زرقاء تحت أجفانها. في ذلك الصباح، بدأت أدرك أن هذه العلامات ليست عابرة، وأن أمي تخفي معاناة قاسية.

(وهي تعانق أمها) هذه ساعة القهوة المضبوطة، وغناء عبد الوهاب الشجي.

ليلى

(تتجه ليلى نحو الفونوغراف، وتضع أسطوانة.)

: (بحدة) دعيني من عبد الوهاب وغنائه.

سناء

: (تشيطين) أماه.. من قد إيه كنا هنا؟

ليلى

- سناء : من قال إنني أحب الغناء. لا أريد أن أسمع عبد الوهاب.
- ليلي : أمي.. أراك متعبة. هل تشكين من شيء؟
- سناء : لا.. حضري القهوة فقط.
- ليلي : (وهي تمضي إلى المطبخ) حاضر.
- (تتوقف، وتستعيد البيرة السردية)
- ليلي : (هامسة) لا أدري.. أعتقد أنها كانت متبوعة.
- الحفيد : ما معنى متبوعة؟
- ليلي : التابعة هي جنية سفينة تسكنها، أو تصاحبها كالطيف أو الظل.
- الحفيد : وكيف عرفت أنها متبوعة؟
- ليلي : في تلك الفترة، بدأت ألاحظ طيف امرأة، أو ظلاً، يجالس أمي، وينهمك في الحديث معها. كان ذلك غريباً.. أحياناً كنت أرى الطيف واضحاً كامرأة حقيقية مليحة الوجه، ولها عينان وحشيتان ومكحولتان. ولكن.. ما إن أنعم النظر، أو أقرب حتى تغيب المرأة، وتحول وهماً. كنت أخشى تلك الرؤية، وأتطير منها.
- (تخفي ليلي)

الحفيد

: في بحثي عن دمل العائلة، كنت أعلم أنني سأتخبط كثيراً في متاهات الأوهام والأكاذيب. ولكن في مثل وضعنا، لم يكن هناك ممر آخر إلى الحقيقة. ولهذا سأتابع هذه الفصول، دون تمحيص كبير، ودون تركيز على حسن التابع والتنسيق.

(٢)

قصة سناء والتابحة

(تمضي سناء بخطى قلقة نحو النافذة، لكن قبل أن تصل إليها، تفتل مبتعدة عنها. تنهارى على إحدى الكنبات. تُخرج من صدرها حجاباً مثلث الشكل، تقبله، وتضعه على جبينها مرات ثلاث.)

سناء : (بضراعة.. هامة) اللهم لا تحبس رحمتك عني. يا رب.. وأنت العارف ما في السريرة، إحميني من شر نفسي، وطهرني من الوسواس، الذي يكدر روحي. يا رب.. إن عبدتك في محنة ما بعدها محنة. فاحمني من مكائد الشيطان وتزويقته. يا رب.. إني أفوض أمري لك. (تدخل امرأة، تماثل سناء في الطول والقوام، ترتدي ثوباً نارياً. وجهها شديد البياض، تبرز فيه عيان، سطوتهما لا تقاوم. تربط شعر رأسها بمنديل حريري موشى بزهور ملونة وصغيرة. تقترب منها، وتجلس قربها.)

سناء : (تبعد عنها بإعياء وغضب) ما الذي جاء بك؟
المرأة : ألهمني قلبي، أنك تتمنين حضوري.
سناء : لم أتمنى حضورك، ولا أريد أن تفسدي ابتهاجاتي.
المرأة : (لا مبالية، وفي صوتها بحة وخشونة) هل تبتهلين إلى الله، أن يعذبك، ويجعل أيامك شقية؟
سناء : أبتهل إليه أن يحميني. إني امرأة متعبة، ولا أتحمل هذا الوجع.
المرأة : هذا وجع يختلف عن الوجع. إنه وجع ممتع، ولا يعرف

- القلب كيف يميز فيه، أين الممتع وأين المومع.
: سناء لا تبدأي في تنويي. عزمت على أن أحسم أمري.
: المرأة وهل أطلب إلا أن تحسمي أمرك.
(تظهر ليلي، وهي تحمل صنية عليها ركوة القهوة والفنجان.
تلكاً في مشيتها، وهي تحملق في الكنبه، حيث تجلس أمها)
: سناء حاذري.. إن ابنتي قادمة.
(تتوارى المرأة)
: ليلي (مرتبكة) هذا غريب.. كأنني رأيت امرأة، أو هيئة غريبة إلى
جوارك!
: سناء في هذا الضوء الباهر قد يعشى البصر، وتترأى للعين أطياف
وصور.
: ليلي ربما..
(تتطلع حولها بفضول واستغراب، ثم تضع الصنية على
الطريزة، وتحاول أن تصب القهوة)
: سناء دعي عنك يا ليلي. سأصيها حين ترقد.
: ليلي (ما زالت تتلفت حولها) ألا تريدن شيئاً آخر يا أماه؟
: سناء مع رائحة قهوتك الطيبة، تحسن مزاجي. ضعي لنا كؤاتة عبد
الوهاب، حتى تكتمل بهجة هذا الصباح والقهوة بالغناء.
: ليلي هل تفضلين أغنية معينة؟
: المرأة «من قدّ إيه كنا هنا».
(تصب سناء القهوة، بينما تضع ليلي الأسطوانة على
الغرامفون، وتخرج. يبعث صوت عبد الوهاب صادحا
بالغناء. بعد قليل، تظهر المرأة)
: المرأة إنه ينتظر.
: سناء اخبرسي، ولا تذكره. هذا جنون لن أستسلم له.
: المرأة بدأ الجنون منذ القديم يا سناء، ولن تستطيعي أن تفري منه إلا

بالموت. (يغدو صوتها حالماً ومؤثراً) كنتِ في الرابعة عشرة من عمركِ، وكنيتِ تجلسين مع عمته في عربة الخنطور، التي تختبئ في زقاق قريب من حي «اليهود». كان الطقس بارداً، والمطر يهطل مدراراً. وكان أخوك البكر يقف على الرصيف، وهو يشد عباءته على جسده العملاق، غير عابئ بالريح أو المطر. انتظرتِ.. وانتظرتِ.. وحين بدأتِ تياسين، انفرج باب، وأطلت منه تلك الصبية، التي لا تحمل إلا صرةً ثياب صغيرة.

سناء : أبنيتي أن تنبشي تلك الذكرى بالذات! (يرقُ صوتها، ويكسو نظرتها لمعان وحنين) حين رأيتُ تلك الصبية، التي تتحدى إرادة أبيها على جبروته وغناه، وتجري كعصفور مبل وراء حبيها وحرقتها، شعرتُ أنني ألتهب بالحسد والشوق.

المرأة : كانت فاتنة، ويزيدها الشحوب والخوف فتنة. ووثب الأخ نحوها. وشعرتُ أن قلبك يسقط إلى أسفل حوضك. وهزك شعور ككي النار، لن يُحى أثره ما حبيت. وحين انطلقتم، كان كل ما فيك يجيش، ولم تكوني تميزين تلك المشاعر المتدافعة كزخات المطر. هي الحسد والشوق، هي الرغبة والحسنى، هي الحلم وحكمة الرغبة. هل عرفت ما أصابك

يومها!

سناء : (منكسرة) نعم.. عرفت. وُلد في داخلي حلم لن ينطفئ ما حبيت. وحين أويت إلى فراشي، لم أتم، ولم تجف دموعي.

المرأة : أرايت! في تلك الليلة، سكنك الحلم، ولن تعرفي السكينة والغبطة حتى يتحقق.

سناء : ها أنت توهنين عزمي.. يا رب.. إنني رخوة وضعيفة. كنت أحسب أنني تجاوزت زمن المخاطر.

المرأة : لا يتجاوز المرء خفتان الحب إلا بالموت.

- سواء : أخشى أن أكون مرصودة، أو أن ساحرة شريرة عملت لي عملاً.
- المرأة : دعي الرصد والسحر جانباً. أنا أعرف، وأنت تعرفين، أنه كانت في الصدر موقدة مهياة دائماً للاشتعال.
- سواء : ولقحتني النار كحجم التنور. هذه المشاعر اللاهية.. هذا الشوق.. هذه اللهفة.. أشعر أنني على حافة الجنون.
- المرأة : لن تشفي من الجنون، إلا إذا أطعمت قـدرك.
- سواء : إلام تدفعيني؟ كيف يمكن، في مثل وضعي وسني، أن أطيع هذا القدر الخفيف؟
- المرأة : أنت تعرفين، أن جمالك هو في أوج ازدهاره ونضجه. حين ينظر إليك، ينخطف بصره، وتحول قسماته نداءً مبحوحاً وضارعاً. لا.. لا.. في السابعة والثلاثين لا تتحدث المرأة، التي جباها الله فتنة وجمالاً، عن السرّ وفوات الأوان.
- سواء : ووضعي! إني متزوجة، ولديّ شابان وصيبتان، إحداهما مخطوبة. لا.. لا.. هذا جنون.. مجرد أن يراودني التفكير، هو جنون يستحق العقاب.
- المرأة : فعلاً، لك زوج وأبناء. ولكن من يحتاجك! الأبناء اكتملت أجنحتهم، وطاروا. والزوج لا يلمس وجودك إلا وقت شهرته أو حاجته.
- سواء : لا.. لا.. مهما كان، فهذه عائلتي، وهذا نصيبي. (منادية، وكأنها تسغيث) ليلي.. ليلي..
- المرأة : إنه ينتظر.
- سواء : لا يعني ماذا يفعل. أرجوك.. دعيني الآن.
- المرأة : كما تشائين. ولا تنسي أنني جاهزة دائماً، عندما تمنين حضوري.
- (توارى المرأة مختفية، ثم تظهر ليلي بعد قليل.)

- ليلي : هل تريدن شيئاً يا أماه؟
- سناء : تعالي قربي. (تجلس ليلي قرب أمها، التي تطوقها بذراعيها، تمسّد على شعرها) أتعلمين يا ليلي.. أحياناً أحس أنك أقرب أولادي إلى قلبي. ربما لأنك آخر العنقود، أو لأن الآخرين يتعدون عني يوماً بعد يوم.
- ليلي : لا أحد يتعد يا أمي. هي ظروف العمل والدراسة. ولكن الجميع يحملون لك حبا كالعبادة.
- سناء : قللي يا ابنتي.. أما زلت تشعرين بالحاجة إليّ؟
- ليلي : ومن يستغني عن أمه! كلنا بحاجة إليك يا أماه.
- سناء : أسألك أنت يا ليلي.
- ليلي : إني أكثرهم حاجة إليك.
- سناء : (وهي تضمها بحنان، وتقبلها) يا حبيبتني..
- ليلي : (هامسة) ألم يخبرك أحد عما سيحدث اليوم؟
- سناء : (متوجسة) وماذا سيحدث اليوم؟
- ليلي : قررنا أن يكون اليوم عيد أبي.
- سناء : ماذا تنوون أن تفعلوا؟
- ليلي : لا.. لن أقول أكثر من ذلك، وإلا فسدت المفاجأة.
- سناء : وفقكم الله، وطيب حظكم في هذه الدنيا.
- ليلي : أماه.. هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟
- سناء : طبعاً.. يا ابنتي.
- ليلي : في الفترة الأخيرة، بدأت ألاحظ أنك دائماً متعبة ومهمومة. ما الذي يقلقك يا أماه؟
- سناء : لا شيء.. (وهي تضم ليلي إلى صدرها) لا شيء يا ليلي. (وتختفي الإضاءة)

الحفيد : بعد ظهر ذلك اليوم، كان جدي ينعم بقبيلوته المعتادة، بينما انهمك الأبناء الأربعة في تحضير الاحتفال المفاجأة. كان الدركي عدنان، وهو الابن البكر، ومعه أخوه سرحان، الطالب في الجامعة الأمريكية، يمدان حبال الزينة، بين السقف وجدران الصالون. وكانت سلمى الفتاة الكبرى، والتي تفضل أن ينادوها «ساما»، ترتب بارفانا أنيقاً في زاوية الصالون الخلفية. أما ليلي، فكانت تزيح الكنبات نحو الجدران، كي يتحول الصالون إلى ما يشبه حلبة رقص، أو قاعة احتفال.. وبعيداً قرب النافذة، كانت الأم تجلس منزوية، وشاردة البصر.

(٢)

فصل التمدن والرقي

(الصالون مزين، ويبدو كقاعة احتفالات. في الركن الخلفي، وُضع بارافان أنيق. قرب الباب المفضي إلى المطبخ، وُضعت طاولة مرتبة، عليها صحون وكؤوس. تبعث من الفرامفون موسيقى غربية ناعمة. يقف الأبناء الأربعة، وقد تجملوا، وارتدوا ثياب المناسبات. يُطل الأب عبد القادر الطحاوي مرتدياً ثيابه التقليدية، المؤلفة من قنّاز حريري وميتان من لون القنّاز، وفوقهما سترة وعلى الرأس طربوش من الجوخ الغامق الحمرة.)

عدنان : صح النوم يا أبي.
سرحان : هنيئاً يا أبي.
عبد القادر : (وهو ينظر إلى الصالون بدهشة) ما هذا يا أولاد؟ ماذا يحدث؟

سلمى : بابا.. اليوم عيدك. وما تراه هو احتفال بسيط أعددناه لك.
عبد القادر : أي عيد؟ وأي احتفال؟
عدنان : كنت يا أبي.. كنت دائماً يا أبي..
(يتلثم، فيلكنزه أخوه سرحان)
سرحان : (بلهجة خطابية) بفطرتك السليمة، ورجاحة عقلك، سبقت يا أبي أبناء جيلك، في تمييز ومعرفة منافع التمدن. أقبلت على مظاهر الحياة الجديدة، دون توجس أو خوف. وغيّرت البيت، والأثاث، والكثير من العادات.
سلمى : وسجلتنا في مدارس أجنبية، كي تضمن لنا الثرية العصرية،

- والعلوم الراقية.
- سرحان : إن عقلك المستتير، جعل من عائلتنا الصغيرة مثلاً للرقى والمدنية.
- سلمى : ولكن في غمرة انشغالك بنا، أهملت حظك، ونسيت أن تغير قديمك.
- عبد القادر : أوضحوا لي بكلام مفهوم، ماذا تقصدون؟
- سلمى : حان الوقت كي نخلع لباس الأزمان المظلمة، ونرتدي لباس الأيام المضيئة.
- سرحان : كل شيء جاهز. وسيبدأ الاحتفال.
- (يحيط الأبناء بأبيهم، ويسحبونه برفق نحو البارافان.)
- عبد القادر : اسمعوا يا أولاد..
- سلمى : الاحتفال مقرر، والاعتراضات مرفوضة.
- ليلى : هذا عيد وزينة وعرس.
- عبد القادر : يا أولاد.. كان ينبغي أن تخبروني..
- سلمى : خشينا أن تجادل أو تتردد.
- ليلى : لا تكسفنا يا أبي.
- عدنان : سأعطي الإشارة.
- الأبناء : (معاً) هيا!
- عدنان : افتح يا سمسما!
- (ينفجر البارافان إلى قطعتين، يخرج الخياط، يتبعه الصبيان، اللذان يحملان صناديق الملابس.)
- سرحان : هذا سيد الخياطين في بيروت. خياط الكبار من أغنياء وسياسيين وتجار.
- عبد القادر : ولكن..
- سلمى : بابا.. أنت تعرف أن هذه الثياب، لم تعد تليق برجل متمدن مثلك.

(ينحني الخياط باحترام طقسي، ثم يبدأ بفتح العلب وإخراج الملابس. ليلي تبدل الأسطوانة، فتصدح موسيقا إيقاعية مقطعة إلى فواصل، وكأنها صُممت كي تضبط حركات لاعبي السيرك. يحيط سرحان وعدنان بالأب، الذي يسيطر عليه خدر المستسلم. ينزعان السترة عن أبيهما.)

: سلمي (تتاول السترة، وترميها في الزاوية) ورمينا سترة العصملي.

: سرحان غير مأسوف على الزمن المولّي.

: سلمي (ينزع عدنان وسرحان المتيان عن أبيهما)

: سلمي (تتاول المتيان، وترميه) وهذا متيان التأخر والتخلف.

: سلمي (يدفع الصبيان قطعة البارافان أمام الأب والابنين، بحيث

يخفي معظم قاماتهم. ينزع عدنان وسرحان القنباز

: سلمي (تتاول القنباز، ثم ترميه) ورمينا قنباز البشاعة والتبلة.

: سرحان ومن بأسف على البشاعة والتبلة..

: عبد القادر لا.. لا.. سأخلعها بنفسي.

: سلمي جاهزون!

: سرحان نعم..

: سلمي هيا أيها الخياط.. جدّد أبانا، واجعل المفاجأة تبهر أبصارنا.

: الخياط حاضر.

: سلمي (يضم قطعتي البارافان، يختفي مع الصبيان وراءهما. تذهب

ليلي، وتجثد وضع الأسطوانة نفسها.)

عدنان : أماء.. لماذا لا تقترين منا؟

سناء : لا تهتموا بي.. إني مرتاحة.

عدنان : (يتجه إليها، ويجرها من يدها) تعالي يا أمي.. يجب أن

تشاركينا الاحتفال.

سناء : ماذا تريدني أن أفعل؟

سلمي : (وهي تلتفت إلى الوراء) ماما.. لاتناكدينا. تعالي واجلسي

قربنا.

- (تهض سناء مطاوعة سلمى، وتجلس على كبة قرية من الحلبة. من خلف البارافان، يبدو عبد القادر، مرتدياً القميص، والخياط منهك في تزويده)
- سرحان : ليس القميص والبنطلون..
عدنان : وعقدنا ربطة العنق.
سلمى : تصوري يا أمه.. سنرى أبي، كالرجال العصرين، يرتدي بذلة، ويضع ربطة عنق.
سرحان : وارتنينا الصدرية، وفوقها جاكيت يلبسه كالثوب.
(يواعد الخياط شقي البارافان، فيظهر عبد القادر بحلته الجديدة، متغيراً وجديداً. تتصاعد آهات الإعجاب.)
الخياط والصيتان: ميروك.. ميروك..
الأبناء : ألف ميروك.. ألف ميروك..
سلمى : (وهي تقترب منه) بابا.. الآن أنت الكمال ذاته.
ليلي : ما أجملك يا أبي..!
(يدورون حوله، وهم يمشون البذلة، أو ينزعون خيطاً عالقاً أو نثرة قماش)
سرحان : أين المرأة؟
(يهرع الخياط، فيتناول مرآة تطوى بمفصلات، يفتحها)
سلمى : أغمض عينيك! بابا.. أرجوك أغمض عينيك.
عبد القادر : أغمضت عيني.
الخياط : (وهو ينصب المرآة أمام الأب) وهامي المرأة.
سلمى : والآن.. افتح عينيك.
عبد القادر : (وهو يتملى هيئته، مستغرباً) إني لا أكاد أتعرف على نفسي.
أتظنون أن هذا لائق يا أولاد؟
سرحان : انتظر حتى يعتاد بصرك عليه.
ليلي : إنه لائق وجميل جداً يا أبي.
سلمى : والآن.. حان وقت الاحتفال والمرح. ضع لنا يا سرحان

- رقصة تانغو. وتعالى يا ليلي، كي نُحضّر العصير والحلوى.
 (فجأة تنهض سناء ممثلة الوجه، تضع يدها على فمها، وتجري
 خارج الصالون. تلمحها ليلي، فتلحق بها.)
 : (ما زال يتملى نفسه في المرأة) ماذا أصاب أمك؟
 : لا أدري. عبد القادر
 : عدنان
 : (تصدح موسيقى التانغو. تعود سلمى حاملة قالباً من الكاتو،
 تضعه على الطاولة)
 : (وكأنه ينتبه فجأة إلى رأسه) أين الطربوش يا أولاد؟
 : (صائحة) أي طربوش! ألم تُحضر قبعة أيها الخياط؟
 : نعم.. إن القبعة جاهزة.
 : لا.. اسمعوا.. مهما قلتم أو فعلتم، فلن أبدل الطربوش.
 : مع هذا اللباس، القبعة أليمة.
 : ولكن مع حسي وديني.. الطربوش أنسب.
 : (غامزاً سلمى) ليكن.. ليكن.. هناك كثيرون يلبسون
 : سرحان
 : الطربوش فوق الملابس الإفريقية.
 : سيكون أحلى، لو تغير بالكلية.
 : (هامساً) اتركني هذا التفصيل، ولا تفسدي الاحتفال. (تعود
 ليلي) ما حال أمي؟
 : لا شيء.. إنها متعبة قليلاً.
 : لا أراها هذه الأيام إلا متعبة!
 : هاتي العصير يا ليلي. وأنا سأقطع الكاتو.
 : (يضع عبد القادر الطربوش على رأسه. على هرج الموسيقى،
 وجو الاحتفال..
 تختفي الإضاءة.)

(٤)

فصل المفارقة بين الطربوش والقبعة

(تظهر فرقة الأراجوز في الساحة. وهي مؤلفة من الأراجوز والصبية والشاب وولد بارع في العزف على الهارمونيكا. تفرش عدتها المؤلف من سلم مزدوج الدرجات، وبعض الأمتعة والإكسسوارات. يخرج الأراجوز من كيس ثلاثة طرايش. يحرب الصغير منها، على رأس الصغير، ويضع الثاني على رأس الشاب، ثم يضع الثالث على رأسه. يقف الثلاثة الواحد إلى جوار الآخر.)

- الأراجوز : كيف نبدو؟
 الصبية : ما هذه المسخرة؟
 الأراجوز : هذه طرايش من أجل الرواية التي نحضرها.
 الصبية : ولماذا الطرايش؟
 الأراجوز : لأن أبطال الرواية وقورون. والناس الوقورون لا يرتدون إلا الطرايش.
 الصبية : دعني من الوقار والمتوقرين. الطرايطير أليق من هذه الطرايش.
 الأراجوز : ألم تنته من الطرايطير! لم نعد فرقة للقفشات الصغيرة، والنمر المستهلكة.
 الصبية : إذن.. سترتدون القبعات بدلاً من الطرايش.
 الأراجوز : (بامتكار) قبعات..
 الصبية : نعم.. قبعات.
 الأراجوز : القبعة مرقعة..
 الصبية : القبعة علوٌ ورفعة..

- الأراجوز** : القبة مرقعة..
- (يدور الأراجوز والصبية، واحدهما وراء الآخر وكأنهما في غمار مطاردة. يعرققان فجأة. يتناول الأراجوز طربوشاً ضخماً، يرفعه فوق عصا. وترفع الصبية قبة ضخمة جداً فوق عصا أخرى. يبدآن جدلاً، يتاوشان خلاله بفضاظة وعنف. وينتهي الأمر بهما إلى الشجار)
- الأراجوز** : (وهو يدور في الساحة) وتفرّج يا سلام..
- على الأمة ذات الهمة
- أرادت أن تستعجل النهضة، وأن تحقق التقدم في قفزة
- فأنفقت عقداً من الزمان، في السجال بين الطربوش والقبة.
- (بصوت خطابي واحتفالي) الطربوش رمز الدين.
- الصبية** : (تجاريه في الصوت الاحتفالي) والقبة رمز التمدن.
- (ينضم الشاب إلى الصبية، فيما يعزف الولد إيقاعات ساحرة على الهارمونيك).
- الأراجوز** : الطربوش علامة التدين.
- الصبية** : والقبة علامة التمدن.
- الأراجوز** : أتمسك بالطربوش، لأنه التعبير الوافي عن ديني وقوميتي.
- الصبية** : لم تذكر الكتب أن الرسول وصحابته، لبسوه أو أوصوا به.
- الأراجوز** : ولكن أبائنا، وأجدادنا، وأجيالاً من السلف الصالح، لبسوه، فصار مئزة وهوية.
- الصبية** : ما الطربوش إلا لباس تركي يقمع الرأس قمعاً، وفي الصيف يحجب التفكير تحت ضباب من البخار واللهب.
- الأراجوز** : ما القبة على رأس الشرقي، إلا فكرة هزمت فكرة، ورذيلة قالت للفضيلة.. أنا جئت فاذهبي.
- الصبية** : ما الطربوش إلا جمود ومرض.
- الأراجوز** : إن الأفكار الإسلامية، لا يصونها إلا الطربوش. وهي تحت

- القبعة تفسد وتبوخ.
القبعة حرة وصحة عقلية. : الصبية
هي تشبه بالكفار، ومن تشبه بالكفار فهو كافر. القبعة كفر الأراجوز
وفجور.
- والطربوش مسخرة وجمود. : الصبية
(وهما يتماسكان) أتسبين ديني وهويتي إلى المسخرة! الأراجوز
وأنت أترميننا بالكفر والزندقة! : الصبية
الطربوش.. هو الأصل. الأراجوز
والقبعة.. هي العقل. : الصبية
الطربوش.. الأراجوز
القبعة.. : الصبية
- (يتماسكان، ويتبادلان الصفحات واللكمات، فيما يحاول
الشاب الفصل بينهما.
تختفي الإضاءة)

- الحفيد : أُمِّي.. ماذا أصاب جدتي يومذاك؟
 ليلي : تقبّأت.. وتقبّأت.. كادت تُخرج أمعاءها من بطنها.
 الحفيد : هل كانت مريضة؟
 ليلي : قالت.. إنه مجرد برد، وأنها تحسنت بعد أن أفرغت معدتها.
 ثم أمرتني أن أتركها، وأعود إلى الاحتفال.
 الحفيد : أخبريني.. كيف تزوج جدي وجدتي؟
 ليلي : كان جدي وأخوالي في دمشق يتاجرون بالحبوب والطحين، وكان أبي أيضاً، واحداً من أكبر تجار الطحين في بيروت. ونشأت بين الطرفين علاقات عمل ومصلحة، تحولت مع الأيام إلى صحبة. وكانت أُمِّي صبية يتغنى الناس بحلاوتها. كان عمرها خمسة عشر عاماً، حين اتفق أبي وجدتي على توثيق التجارة والمودة بينهما بالمصاهرة والزواج.. وأقيم عرسان واحد في الشام، والآخر في بيروت. وتم الزواج بين أبي وأُمِّي.
 الحفيد : هل كان بينهما حب؟
 ليلي : في تلك الأيام، كان الحب معيماً. ومع هذا أعتقد أن أبي كان يحب أُمِّي، لكنه لم يكن يعرف، أو لم يشأ، أن يعبر عن حبه. من الصعب أن يفهم المرء سلوكه. كان شديد الرحابة معنا نحن أولاده، ولكنه كان شديد القسوة والغيرة على أُمِّي.
 الحفيد : إذن.. ما الذي يجعلك تعتقد أن كان يحبها؟
 ليلي : لا أدري.. كنت ألمح خلف قسوته نوعاً من الهوى المشبوب.
 الحفيد : ماذا تعلمين عن علاقتهما في الفراش؟
 ليلي : (غاضبة) يا عيب الشوم! ألا تستحي أن تسأل أمك مثل هذا السؤال!
 الحفيد : في مثل هذه الزيجات، الفراش هو الأرضية، التي يتفرق فوقها

شكل العلاقة، ومصير الزواج ذاته.
: (وهي تخرج) حقاً إنكم جيل لا يعرف الشرف أو الحياء.
: وكانت خالتي سلمى، التي بالفت في تمدننها، تكره الترممت،
وتغالي في الصراحة.
(تظهر سلمى، وهي تفهقه)
: نعم.. تلصصت عليهما، واكتشفت كيف كانت تدور
الأمر بينهما. أوه.. شيء بهيمي ومبتذل. كان نوعاً من..
لا توجد كلمات مناسبة.. سأصف لك ما رأيت، ولك أن
تحكم بنفسك.

ليلي
الحفيد
سلمى

(0)

فصل الفراش الزوجي

(الإضاءة خافتة لا تكاد تبدد العتمة. وهي تضيء على الحركات طابعاً شبحياً. فراش عريض ووثير في غرفة الأب والأم. سناء تنام على جنبها. يأتي عبد القادر، ويتمدد وراءها. يمسكها من كفها، ويحاول أن يقلبها على ظهرها. تنقلب سناء، دون مقاومة، متمددة على ظهرها.)

عبد القادر : كم مرة قلت لك.. لا تسرعني في الاستجابة!

سناء : (بصوت مخنوق) إني متعبة..

عبد القادر : (بغضب) ما هذه القصة! كلما اقتربت منك، يداهملك

العب. أتعرفين أن هذا نشوز، وأن الناشزات يُضربن في المضاجع؟

سناء : أرجوك أن تخفض صوتك.

عبد القادر : إذن.. لتي رغبتني، وافعلي ما يرضيني.

سناء : سأفعل.. سأفعل.. ولكن لا تغضب، ولا تجعل الأولاد

يكشفون أمرنا.

عبد القادر : طيب.. عودي واستديري.

(تستدير سناء، لتنام على جنبها كما كانت في بداية المشهد.

يمسك عبد القادر كفها بقبضته، ويحاول أن يقلبها على ظهرها. تقاومه)

عبد القادر : (بشبق) نعم.. نعم.. قاومي.. وارفضي..

سناء : (باشمزاز حقيقي) لا.. لا أريد..

عبد القادر : (وهو يقلبها بعنف) أحقاً لا تريدان؟

سناء : دعني.. (وهي تقارمه) ابتعد عني..
عبد القادر : (وهو يثبت يديها، ويوحف فوقها) أنتِ لي.. ولن أبتعد إلا
فيك.

سناء : إنك تؤلمني.
عبد القادر : وسأزيدك ألماً إن لم أسمعك تتوسلين.
سناء : (بألم) إنك توجعني فعلاً.
عبد القادر : توسلي إذن..
سناء : أرجوك أن تكون لطيفاً.
عبد القادر : (وهو يمزق سروالها) لا تتفق اللذة مع اللطف.
سناء : آخ..
عبد القادر : الآن.. بدلي التمتع بالدلال.
سناء : (الكلام الذي تقوله هو جزء من طقس محفوظ، ولكن من
الواضح أنها لا تمثل، وأنها تعنيه فعلاً) إني أكرهك..
عبد القادر : نعم.. نعم.. أكرهيني.
سناء : إنك جلف.. إنك وحش.. إنك رهيب..
عبد القادر : نعم.. إني جلف، وإني وحش، وإني رهيب.
سناء : خاصمتك..
عبد القادر : (بيخور، بصوت لاهب ومقطع) وأنا أصلحك.. أصلحك..
أصلحك.
(تخفي الإضاءة)

: وكانت تلك الأيام مخمورة، تترنح بالإباحة والشهوة. جاء السيد دي مارتل، مفوضاً سامياً. كان مخنكاً بلا وازع، وماجناً بلا رادع. خطف عقول القوم، فخلعوا ما بقي من التقاليد والقيم القديمة. وانهمكوا على دين سلطانهم، في البحث عن المباح والم لذات. كانت الأيام مخمورة، تترنح بالإباحة المفاجئة، والرغبات الذاهلة.

(1)

فصل التلقين والتدريب

(غرفة تختق بالدخان، أرضها مغطاة بحصير وحشايا ومخدات مفروشة على الأرض، وموزعة قرب الجدران. عصمت الذي يلقب بالبوري شاب في حوالي الثلاثين من العمر، قاسي الملامح، وفي خده أثر جرح غائر، يزيد تلك الملامح صرامة. تجلس إلى جواره ومستندة على صدره سونيا، وهي شقراء وقصيرة القامة، لكنها حلوة الروح وجذابة. في الزاوية المجاورة، يجلس سرحان، الذي تبدو عليه مسحة من التهب والارتباك. أمامهم طبق عليه بعض صحون المازة، وأقداح من العرق.)

- البوري : ألا تعجبك سونيا؟ ما لك! إملأ عينك منها، ولا تخجل.
سرحان : (بصوت متردد) ومن لا يعجبه الجمال!
البوري : أترين.. هذه ميزة المتعلمين. إنهم دائماً يجدون أجوبة لطيفة.
ألم تلاحظ أنها تشبه امرأة، لها صيت يطرئ في كل المدينة..
أمعن النظر، وتذكر..
سونيا : لا تبالغ يا بوري..
البوري : يشهد الله إنني لا أبالغ.. وأحياناً أرى أنك أجمل منها. ألم تجزر بعد؟
سرحان : لا أظن.
البوري : إنها تشبه الموسكوفية، التي يتفانى في عشقها مفضنا السامي، السيد دي مارتل.
سرحان : تلك المرأة، التي لها نصيب من كل تجارة أو وساطة! سمعت

- عنها ولم أرها.
- البوري** : غريب.. إن بيروت كلها تعرفها، لأن المفوض السامي يحب أن تبختر إلى جواره، غير عابئ بزوجته، أو بكلام الناس. وعلى كل لم يفتك شيء. (وهو يضم سونيا) فهذه الشيطانة تكاد تكون أختها التوأم.
- سونيا** : وأين نحن منها! هي تلعب بالملايين، ونحن نخشخش الفرנקات.
- البوري** : سيأتي حظك يا سونيا.. صدقيني أنه سيأتي. انظري.. إن البلد يفور. يشهد الله إنني أحب هذا المندوب السامي.. لقد أبهجتنا، ونفخ فينا روحاً جديدة. منذ جاء، خلع الناس الحياء، وتفتحوا للعالم ومسراتها. أحياناً أحس أن بيروت تتغير، وتتجدد كل لحظة. حين يمشى المرء في ساحة البرج أو على الكورنيش، يشعر أن الهواء المحمّل بالعطر والشهوة، يسري في مجاري الصدر حراً ومسكراً. هواء جاء من بلاد بعيدة يملأ النفس توقاً إلى نشوة غريبة. نعم.. إن البلد تفور يا سونيا. ولو عرفت كيف تهزين خصرك، لجاؤتك الفرص متراحمة.
- سونيا** : لكل واحد نصيبه في هذه الدنيا.. وأنا راضية. يكفي أن يحميني رجل شهيم وكريم مثلك.
- البوري** : أهذا كلام من القلب؟
- سونيا** : (وهي تقبل ذقنه) وهل تعودت مني الكذب!
- البوري** : يشهد الله إنك تجعليني أفرط. وسأقول لك مختصراً ومفيداً، لن يصيبك الأذى ما دمت حياً. (يوقع كأسه) كلامك يستحق نخباً يا سونيا. يالله.. كمب أبيض (يوقع الثلاثة كؤوسهم، ويفرغونها في أجاالهم) عظيم.. والآن.. ما رأيك بيورية؟

(يخرج البوري من جيبه عدة التدخين، فيما تصب سونيا العرق في الكؤوس، وترايشه بالماء.)

: قلت لك لم أدخنه من قبل.

سرحان

: يا صاحبي.. في كل شيء هناك مرة أولى. واجتماعنا اليوم

البوري

سيكون فيه مرة أولى لأشياء كثيرة. اسمع.. يشهد الله إنك دخلت قلبي، منذ التقينا بيار الزيتون. ولكن.. لا مؤاخنة.

إنني متحير في أمرك قليلاً. أخبرتني أنك طالب في الجامعة، وأن أمورك ميسورة، فما الذي يدفعك إلى دروبنا الوعرة؟

: عافت نفسي الدراسة، والمعارف الذهنية. ما يُلهب أشواقِي،

سرحان

هو الحياة الحقيقية. أريد أن أغوص في بحرها. أن أعرف أسرارها، وأجد مكاني فيها.

: (وهو يناوله سيجارة حشيش، بعد أن يشعلها له) يشهد الله

البوري

إنك تقول كلاماً يعنى المخ. وأنا أيضاً أجبرتني الظروف على قطع دراستي، وتلبية نداء الحياة. لست نادماً، فالحياة هي

أيضاً مدرسة غنية. لا.. لا تسحب بشدة. اسحب على مهل، وتذوقها ببطء، وانفخها مرتاحاً. إن الحشيش يكره

النزق والعصبية. وكلما استرخيت.. كلما كشف لك ألواناً

من سحره وغرائبه.

: أشعر دواراً في رأسي.

سرحان

: هذا طبيعي. لا تأتي النشوة إلا بعد المكابدة. كاشك..

البوري

(يتبادلون دق الكؤوس، ويمززون شرابهم على مهل) هل تعرف يا صاحبي أن الدرب الذي تختاره، فيه مهالك

وصعوبات؟

: لا ترعب الشاب يا بوري.

سونيا

: لا أرعبه. ولكن ينبغي أن يكون كل شيء على بلاطة منذ البداية.

البوري

- سرحان : (بدأ لسانه يتلجلج قليلاً) شيء طيب، أن نبدأ خطانا على بساط من الصراحة. أحب أن تعرف عني هذا الجانب.. أنا أعتقد أن الحياة في أصلها مجازفة. والأخطار لا تخيفني، بل تغريني.
- البوري : هذا يعني أنك مستعد لتنفيذ كل ما يُطلب منك.
سرحان : أنفذ ما أقدر عليه.
- البوري : يشهد الله هذه الإجابات تليق بالرجال. أخشى أنني لم أحسن تقديرك.
- سرحان : (عيناه زائغتان، والعرق يغطي وجهه، الذي يتفكك) ستأتي الأيام، وستكتشف أنك تعرفت على رجل..
(لا يسيطر على حالته، فيضع يده على فمه، وينهض مسرعاً خارج الغرفة)
- سونيا : أسرفت عليه..
البوري : إنه لقطة، ولكنه يحتاج إلى تلقين وتدريب. لن يستطيع أن يعمل في هذا الميدان، إلا إذا دعكناه، وعلمناه فنونه وخفاياه. انهضي الآن، واعتني به. لا شك أن فنونك ستشفي دواره وأوجاعه.
(تضربه بدلال، وتقفز ناهضة برشاقة..
تختفي الإضاءة)

الحفيد : لا نستطيع أن نحدد متى قررت الخالة سلمى، أن تتكلم بالفرنسية فقط، وألا تستعمل العربية إلا مع الخدم وفي أدنى الحدود. ومرة سألتها.. هل كنت تحبين زوجك.

سلمى : كان شاباً متمدناً وميسوراً، وكانت ليونته، والوسط الذي يعيش فيه، يلائمان تماماً ما كنت أصبو إليه.

(٧)

فصل الارتباك والحب

- (غرفة في بيت الخياطة نورا. حبيب، وهو رجل وميم في الخامسة والأربعين من عمره، يذرع الغرفة بهدوء رواقى لطيف. تدخل سناء، مرتبكة ومنكسرة النظرة. يقف الواحد منهما تجاه الآخر، وتمتد بينهما فترة صمت طويلة ومتوترة.)
- حبيب : هل ترتعشين؟ (فترة صمت) أنا أيضاً، أحسُّ رعشة في قلبي وأحشائي. ما عدت أعرف أيهما أوجع.. ألم أنتظارك أم فرح حضورك!
- سناء : هل أملك الانتظار؟
- حبيب : لا.. لا يحق لي أن أشكو. رتبت حياتي على الانتظار. لم يعد لدي ما أفعله، إلا أن أنتظرك. لماذا لا تجلسين؟
- سناء : (وهي تجلس) إن الخوف يرهقني، ولم أعد أعرف نفسي. قل لي ماذا تريد مني؟
- حبيب : تخيلي رجلاً يصاحبه السأم مثل ظله، ويجرُّ كالمرض الأصفر شحوب الرغبة والأمل في داخله. وفيما هو يتداعى نحو مغيبه، تباغته رؤيا تصعق خموله، وتجدد فيه الحياة والرغبة. كل هذا لغو.. لن أستطيع أبداً أن أشرح مشاعري نحوك. وحياتي لم تعد شيئاً إلا هذا النداء الموحج، الذي ينتظر بصبر لا يكلُّ ردك وحضورك.
- سناء : ارفق بي! أنا لم أحب من قبل. وحين أصغني إليك، أشعر أنني أدوخ، ويختلط كل شيء في داخلي.

- حبيب : إنك تقطرين الكلام مدهشاً ومسكراً. أحقاً لم تعرفي الحب من قبل؟
- سناء : كنت دائماً أنتظر شيئاً ما. أشعر فجوة في أحشائي، أو رفة في قلبي. وكنت أشرد حاملة وحزينة. وحين كنت أراقب في دارنا بالشام زوجاً من الحمام، وهما يتبادلان الحب والحنان، ويمضيان أوقاتاً مديدة في تبادل القبلات والمداعبات، كنت أحس أن أشواقني تكاد تخنقني، وأني أريد أن أغني، أو أنوح. كنت دائماً أحس أنني أنتظر شيئاً غامضاً. وكما ترى.. تأخر هذا الشيء الغامض، حتى غدوت شجرة خريفية تتساقط أوراقها.
- حبيب : ماذا تخوفين؟ أنت شجرة دائمة الخضرة، تتجدد مع كل فصل ريانة، كأرزة مباركة. ينبغي أن تعرفي أنك شجرة الحياة بالنسبة لي. أنت غذائي، ومستقبلي، ولا حياة لي بعيداً عن فيثك وثمارك.
- سناء : يا رب.. كيف يمكن أن أفلت من فتنة هذا اللسان!
- حبيب : ما أقوله ليس ألفاظاً وعبارات. إنني أسكب بين يديك عصارة ما يجيش في أعماقي، من وجد وشغف وأمل. أخبريني إلام سبطل الارتباب يحول بيننا كالغيمة السوداء؟
- سناء : ألبأ إلى الارتباب، لأنني لا أدري ماذا أفعل.. أبنغي أن أعترف لك! أنت تعرف أنك سلبت رشدي.
- حبيب : (وهو يمسك يديها) انطقيها يا سناء.
- سناء : نعم.. إنني أحبك. ومنذ التقيتك أحس، أن عاصفة اجتاحتني، وتركت كل ما في داخلي مبعثراً ومقلوباً. فعلاً.. لا شيء يشبه ما حدث لي إلا العاصفة.
- حبيب : هذه لحظة أجمل من أن يتحملها قلبي أو عقلي.
- سناء : وما الفائدة؟ ليس بيننا إلا الحواجز والأسلاك.

- حبيب : إن الحب سيمدنا بالعزيمة، كي نتجاوز الحواجز والأسلاك.
- سناء : إنني متزوجة يا حبيب.
- حبيب : ولديك أربعة أولاد.
- سناء : بيننا فروق المذاهب والعادات.
- حبيب : لا يهتم بهذه الفروق إلا الحمقى. إن الله رحمة ومحبة، ونحن جميعاً أبناءه وخلقه.
- سناء : هذا جنون..
- حبيب : إذن.. الجنون هو فرصتنا الأخيرة. وعلى كلٍ أنا أيضاً كنت متزوجاً.
- سناء : تمنيت أن أسألك، ولكنني تخرجت. حدثني عن زواجك.
- حبيب : كنت أعيش في كنف عمتي، وحين حصلت على شهادة الحمامة قررت، وفي اليوم ذاته، أن تزوجني قريبة بعيدة، وبدأت على الفور، ترتب تفاصيل الزواج وشروطه.
- سناء : هل كنت تحمل لها عاطفة أو محبة؟
- حبيب : لا.. كان قلبي يياضاً خاملاً. وفي أوساطنا من يسأل عن الحب!
- سناء : مع تفتحك وعلمك قبلت أن تتزوج مثلنا!
- حبيب : كان هناك فضول يجعلني دائم التوتر. لا أدري.. كان يأتكنلي النهم إلى سرٍّ غامض. لا أعرف أين ضيعته. وكإغراء منهك وشهي، كنت أدرك أن هذا السر، لن يتكشف إلا عبر المرأة ومعها.
- سناء : وهل وجدت السر الذي تبحث عنه؟
- حبيب : كان زواجاً فاتراً ومخيّباً. جاءت تحمل روحاً مسيحية متواضعة، وجسداً طفلاً ينفر من الرغبة، ويخاف دنس المتعة. كانت خيالاً لا تشهق فيه عروق، ولا تصخب دماء. ومع ازدياد نهمي وخيبيتي، كنت أندس في الكراهية والصمت.

وكان يمكن أن أوالي انزوائي في الكراهية والصمت لولا أن الموت عاجلها. كان رحيلها مباغتاً، حتى أنني لم أستوعبه. والآن أذكر جيداً، ذلك الوقت الذي كنت عائداً فيه من المقبرة. كانت الشمس تنهوج، على حافة الأفق، كانفجار من الشهوات والبرتقال. وكان البحر ساجياً، والجبال تسترخي على مصاطبها، وتسرح مع أشواقها المسائية. كان الكون موجات من الفرح تدافع بلطف، وتسير عبر مسامي. أحسست في داخلي حشداً من الأمانى والرغبات يتوالت في ردهات صدري، ويقم أعراساً يلهبها الشوق والجمال. كانت تلك هي اللحظة الحاسمة في حياتي. وعرفت أن قدرى، هو أن أكشف السر، الذي راوغني عمراً.

سواء : وما هو هذا السر، الذي تجري وراءه منذ الطفولة؟
حيب : أعقد أنني بدأت أتعرّفه، أو أتعرّف الطريق إليه. إنه يشبهك، أو إنه أنت.
سواء : لا أستطيع أن أقاوم.. إني ضائعة. ماذا تظن أن يوسعنا أن نفعل؟

حيب : اصغى إلي يا شجرة عمري. لم تعد لي حياة بعيداً عنك. وما سميت جنوناً، هو الهدية التي خبأها لنا الزمن كي نعيش السعادة التي طاردناها، وحلمنا بها طويلاً. سأظل أنتظر، جالساً في هذه الغرفة، أو في سيارتي. سأنتظر.. وأنتظر. أياماً وشهوراً وسنوات حتى تأتي، وكل متاعك حفية صغيرة، وحضور متألّىء.

سواء : (بحركة خرقاء، ترفع يده إلى شفتيها، وتقبلها) وإذا لم أحزم أمري، ولم آت؟
حيب : (وهو يضمها إلى صدره) قدرى أن أواصل الانتظار حتى

رمقي الأخير.
: إن حلاوة لسانك تخيفني. ينبغي أن أمضي. سناء
: (وهو يقبلها) لا تنسي أنني أنتظر. حبيب
: (وهي تتزع نفسها منه) حتماً لن أنسى. سناء
: متى تأتئين؟ حبيب
: وهل أدري! سناء
(تختفي الإضاءة)

(٨)

فصل جريمة العصر

(تظهر فرقة الأراجوز في الساحة القوية من بيت سناء. يضعون ما يحملون في الساحة من عدة وإكسسوارات. الصبية تتكرر في جلد قردة. مع بدء نداءات الأراجوز، والمباشرة بالحكاية اللعبة، يبدأ جمهور من السابلة بالالتفاف حولهم، مشكلين حلقة فرجة.)

الأراجوز : (يفتح السلم، ويصعد بضع درجات. ينادي في كل الجهات)
وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..
لم يعد في عملنا، أن نقلد مشية الختار
ولاً أن نحرق دبر الشمطاء وشعرها بالنار
وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..
(ترشق الصبية الأراجوز بالبصاق، ثم تطلق صفيراً حاداً
ومشاعباً)

الأراجوز : (ملاحظاً تجمع بعض الناس حوله) أرجوك أن تكوني لطيفة،
وأن تتعاوني معنا، كي نسرد الحكاية بتوافق وسلاسة.
الصبية : ما أغباك! ألم تفهم بعد، أن ميزة هذه الحكاية، هي أن يرويها
كل واحد على هواه. (تبصق نحوه باحتقار) ولكن ما
الفائدة! ما أنت إلا أراجوز عميق وغبي.
(يتكاثر الناس حولهم. يومئ الأراجوز للشاب، فيبدأ بالقيام
بعض الحركات البهلوانية البسيطة، مستخدماً السلم والخيال،
ومستعيناً بالولد. أما الأراجوز فيدور في الحلقة، منادياً
ومعلنًا.)

الأراجوز

: وتفْرِج يا سلام.. وتفْرِج يا سلام..

سترون القردة العجيبة

التي لا ينطق لسانها إلا بلغة فصيحة

هي فريدة جنسها وزمانها

وتفْرِج يا سلام.. وتفْرِج يا سلام..

لم يعد في عملنا، أن نقلد مشية الختار

ولا أن نحرق دبر الشمطاء وشعرها بالنار

وتفْرِج يا سلام.. وتفْرِج يا سلام..

(مع نداءات الأراجوز، يقوم الشاب ببعض الحركات

البهلوانية، فيقف على رأسه، ويتسلق السلم، ورأسه مدلى

إلى الأسفل. أحياناً يتوقف الأراجوز، ويصفق للشاب، فيتبعه

الحاضرون بالتصفيق.

يتاول الولد آلة هارمونيكا، ويعزف في البداية نغمات متقطعة

وإعلانية. تتحول تدريجياً إلى أنغام حزينة ومؤثرة. تظهر سناء

والمرأة على الشرفة المطلة على الساحة، وتفرجان باهتمام.

يزداد عدد المتراحمين حول الحلقة.)

الأراجوز

: سنروي لكم جريمة العصر التي رؤعت بلاد الشام في كل

ريف ومصر

الصية

: (تقفز متجهة نحو الأراجوز. تدفعه في صدره، وتبصق)

سنروي لكم قصة حب، كان يمكن أن يتحلى بها العصر

وأن تلتف بالشوق والحلم، كل ريف ومصر

: ستسمعون وقائع تبليبل، وأقوالا تختيل

: تفاهات ومبالغات..

الأراجوز

الصية

كل ما حدث، هو جزء من أسرار الحب وتقلباته

: إذن اسمعوا أيها الأماجد والأكابر!

الأراجوز

كان رقصي الغازي واحداً من الرجال المرموقين، كان علماً

- وطنياً.
- الصبية : وأنا امرأته صافية الخافي، أدري به من الأتباع والمرائين.
كان سقيماً، وخائراً.. كان عنيماً.
- الأراجوز : كان النضال من أجل الوطن، يستنفد كل طاقتي. وزاد
ضعفي حين أصابتنني قرحة في معدتي.
- الصبية : عرفتك مع النضال والقرحة، وعرفتكَ دونهما. ولم يكن
لديكَ في الحالين ما تدعيه، أو تتباهى به.
- الأراجوز : كانت امرأة..
كانت امرأة معتلةً بالشبق والتهمة..
كانت امرأة مأبونة وفاسدة.
- الصبية : إذا كانت الصحة، وطيب الشهية فسداً، فإني الفسَاد عينه.
الأراجوز : كانت سوقية الحركات، مكشوفة الألفاظ. وكانت الشهوة
تفوح منها بلا حياء.
- الصبية : كنت كالرغيف الذي قُمره الفرن، أفوح رغبةً وحباً وحناناً.
أما الرجل الوطني الكبير، فقد كان بارداً ومتفززاً، مثل سمكة
نهرية.
- الأراجوز : كنت أتعشم أنك من عائلة تحفظ التقاليد، وتصون العادات
العريقة.
- الصبية : كان يتعشم، بعد أن درس علوم المتمدنين، وتمتع بعاداتهم
ونسائهم، أن يجد عند عائلة دمشقية عريقة، طفلة عمياء،
يربكها الحياء، ورضا زوجها هو الغاية والرجاء.
- الأراجوز : نعم.. كنت أبحث عن فتاة، تتسربل بالحياء والحشمة، لا عن
تنور يفور بالسوقية والغلطة.
- مضرج : شو هالحكي.. شو يعني غلطة؟
الأراجوز : الغلطة يعني شدة الشهوة.
(ضحكات وتعليقات. يعلو صوت الهارمونيكا، ويدور

الأراجوز بين الناس، وهو يروجهم الحفاظ على الهدوء).
 : (وهي تقفز بحركات بهلوانية) أيها العالم الكبير، والوطني
 الخطير.. لا تنقص البيت، الذي طرقت بابه، الفضيلة أو
 التقاليد. وما تجهله هو أننا نرث، رغم التزمت والتقاليد، تربية
 تعلمنا كيف نحول الزواج فرحاً ونشوة وسعادة. (سارحة،
 وكأنها تحلم) علمتني أمي، التي تعلمت من أمها، قالت..
 إني أوصيك بوصية، إن قبلتها سعدت وأسعدت.. عندما
 يعود زوجك إلى البيت، تلقّيه في ثوب رفيع مطّيب، يظهر
 بدنك من تحته. ثم اعتنقيه، وقبله، ودغدغيه، وعصّيه، برفق،
 وشئني صدره، وتقاصري تحت إبطيه، والصقي نهديك
 بجسده، فإن طوقك بذراعه، فانخري، واظهري له استرخاءً
 وفوراً. وإن قبض على جارحة من جوارحك، فارفعي
 صوتك عمداً، وتنفسي الصعداء، وبرّقي أجفان عينيك. فإذا
 ضمك إلى حضنه، فأكثري الفنج والحركات اللطيفة،

الصية

وصوتني باللفظ الفاحش، وقولي.. يا حياتي.. يا شفائي.. يا
 دوائي.. يا سروري.. يا شهوتي.. يا طبيبي.. يا حبيبي..
 : (يتناول عصاً، وينهال بالضرب على ظهرها وعجزها) ما هذا؟
 أيكفي أن نغفل لحظة، حتى تفلت كل براغيك. ألم أوصيك
 أن تحذفي هذا المقطع المشين.
 : في هذا المقطع خبرة ولذة لا تستحقهما، ولن تقلّرها ما
 حبيت.

الأراجوز

الصية

: - لو أن حماتي علمت ابتها شيئاً من هذا!
 - أترى ماذا يعلم الأكابر بناتهم؟
 - ما أقوى عينيها! وما أجرأ لسانها!
 - حرام.. إنك توجعها.
 - يا زلمة.. إنها تهين رجلاً وطنياً كبيراً.

مفروجون

- ولكن ما تقوله، لا يخلو من الحق.
- توقف يا رجل، وإلا قتلتها.
- (يندفع بعض المتفرجين ومعهم الشاب، فيمسكون الأراجوز، ويحجزونه عن الصبية)
- الصبية : (وهي تهقه) اتركوه.. اتركوه.. حين يضربني يتوهم أن الميت الذي بين فخذيه، يحى ويقوم.
- (تغدو قهقهتها جلجلة. يختم الأراجوز الموقف. يدور في الحلبة، ثم يتسلق السلم، وهو ينادي)
- الأراجوز : وتفزج يا سلام.. وتفزج يا سلام..
- على أونا على دوة على تري..
- (يغير الولد نغمات الهارمونيكا، فيما يقوم الشاب ببعض الحركات البهلوانية البسيطة)
- يا أجواد.. يا كرام..
- سنحكي عن الجريمة
- التي روعت الناس، الشيب والشبان، في كل بلاد الشام.
- الصبية : سنحكي قصة حب
- نفحت العشاق إقداماً وجرأة، في كل بلاد الشام.
- الأراجوز : كانت تحضر السم مع عشيقها.
- الصبية : لا تستعجل.. مرّت سبع سنوات، تعودتُ خلالها أن أصبر، وأن أروض جسدي، وأقهر رغباتي. حتى أحسستُ أن الشيخوخة تداهمني.
- الأراجوز : وذات يوم.. جاء ابن أخي كي يُتمّ تعليمه في الجامعة، فرحبتُ به، وأفردتُ له غرفة في بيتي.
- الصبية : في البداية لم يسعدني وجوده.
- الشاب : (يقطع الكلمات، وأحياناً يتأنيء. تعلق الكلمة، فيذل مجهوداً مرهقاً، كي ينجح في لفظها.) كنت أقرأ في عينيها، تمللاً

وازدراء.

الأراجوز : حيلة قديمة كي تغويه، وتُفسد براءته.
الشاب : ليس صحيحاً. بدأ حبها يقوّر فؤادي، قبل أن تتعود وجودي.
كان يكفي أن ألمح سحرها، حتى تتسلق جسدي رعشة من الخوف والحتمى.

الأراجوز : (غاضباً) هي التي أغوتك.
الشاب : لا.. لن أزوّر الوقائع. كان الوجد والخوف والحجل، كل ذلك يختلط في داخلي، ويبدد سكينتي.
(يقرب الولد، ويدور حولهم، ناشراً في الجو لحناً، يموج بين الغضب والحنان)

الصية : طلبت منه أن يستأجر له غرفة في المدينة.
الأراجوز : ونهرتها قائلاً.. هذا ابن أخي من لحمي ودمي، ولا يجوز أن يسكن إلا في بيتي.

الصية : ومع الأيام.. بدأت أتفحص الهيام في عيني ابن أخيه.
واكتشفت أنه شاب يفيض قوة وحياء.

الشاب : ومرة.. فاجأتني نظرتها، فاحمرّ وجهي، وتعرّق جسدي.
الصية : أحييت ارتباكك واحمرار وجهه.

الشاب : كانت بحراً من السحر والجمال، وكنت أغرق فيها بلا

رجاء.

الصية : وفي صباح حار، مددت له يدي، وعلمته كيف يعوم.
الأراجوز : وتفزع يا سلام.. وتفزع يا سلام..

وكان السيد رفقي الغازي أنبل من أن تساوره الشكوك، أو تقلقه الوسواس.

الصية : وانغمسنا في حب مهووس، لا يرتوي ولا يشبع. قطفنا
الذات لم أعرف لها اسماً، ودخلت جنات لم أعرف لها

نعمة، نوسوس.

الصية

: وانغمسنا في حب مهووس، لا يرتوي ولا يشبع. قطفنا
لذات لم أعرف لها اسماً. ودخلت جنات لم أعرف لها

- الشاب : وفي أطياب الجنة، كنت أنسى حظي الخيانة.
الأراجوز : وتفرج يا سلام.. وتفرج يا سلام..
هيا.. هيا.. أيها الكرام.. اعذرونا.. وما قصدنا أن نزين
الفحش والفجور. ولكن هذه اللعينة تكره الانضباط، وتبعد
النشوز. باختصار.. وبعضكم لا يجهد ما صار..
تعلقت المرأة بالشاب. ولم يعد يستغني أحدهما عن الآخر،
في الليل أو النهار.
الصبية : لم أعد أحتفل، أن يكون بيننا زوج، وأن أعيش في التظاهر
والكذب.
الشاب : فجأة صاحت.. طلبت الطلاق مراراً، ولم يقبل. هذه الحياة
منقصة.. ولن تصفو إلا إذا تخلصنا منه.
الصبية : اصفر وجهه، وبدأ يرتعش.. كنت أعلم أنه خرع.
الشاب : كنت أتمزق بين أطياب الجنة، ومرارة الخيانة.
الأراجوز : وأخرجت من جيبي برشامة السم.
الصبية : انظر.. في هذه البرشامة خلاصنا. إنها كبرشامات القرحة،
التي يتناولها كل ليلة. وإذا تناولها الليلة، فلن يطلع عليه
صباح. (يبدأ الشاب بالارتعاش) ما لك؟ إنك تنهار مثل طفل
جبان.
الشاب : (متأثراً) ما تفكرين به رهيب.
الصبية : لن يكون رهيباً إذا وقفت إلى جانبي. أم أنك تريد أن ندفن
ما بيننا ونفترق.
الأراجوز : وتفرج يا سلام.. وتفرج يا سلام..
يا أجواد.. يا كرام..
هدأت مخاوف الشاب، ولو إلى حين. وفي المساء سقت
البرشامة للزوج البريء. وفي الغداة ماجت الناس على خبير
الوفاة. وخيم الأسف والحزن على بلاد الشام.

- (يتحول صوت الهارمونيكا شيئاً بالنحيب)
- الأراجوز : وتفترج يا سلام.. وتفترج يا سلام..
 ودفن الرجل الكبير في جنازة مهيبة. وفي مجلس العزاء،
 تقبلت الزوجة وابن الأخ التعازي ومواساة الناس.
- الصية : ولولا هذا الخرع، لانطوى الخبر، وفات الأثر.
 الشاب : أصابتي حمى شنيعة، ورحت أهذي، وأفشي كل شيء.
 الأراجوز : مع هذيان الحمى، كان يصيح جاحظ العينين.. قتلنا أي..
 قتلنا أي.
- الصية : كيف استطعت أن أحب رعيداً مثلك؟ لولاه.. لفات الأمر.
 الأراجوز : إن الله يمهل ولا يهمل. وهذه الجريمة الرهيبة لا يمكن أن
 تقوت.
- الصية : (بعنف وغضب) قلت لك.. لن أوافق على هذا الترتيب، ولن
 تؤثر في هذه الحكم المحفوظة، التي تتشدق بها. منذ البداية
 أردت أن تمسخني فردة مكروهة، ومتوحشة. انظر.. إذن..
 (تنزع بفضب جلد القردة، فتظهر صية مليحة الوجه، لطيفة
 القوام) إني امرأة حية، وعروقي تفيض بالدم والصحة.
- الأراجوز : إنك تفسدين العمل.
 الصية : لا أفسد إلا أفكارك السقيمة، وأحكامك السامة. وقفت تلك
 المرأة في المحكمة، وواجهت القضاة بثبات وجرأة. قالت..
 نعم.. لقد قتلت.
- الأراجوز : وسأل القاضي.. هل تدركين فظاعة ما اقترفت يداك؟
 الصية : أهدأ فظاعة من الإهانة والاحتقار البارد، اللذين تحمتهما
 سبع سنوات متوالية!
- الأراجوز : وهاجت قاعة المحكمة، وتدفقت الشتائم..
 الصية : اخرس، ودعني أتابع! تحمّلت احتقاره البارد سبع سنوات،
 وأنا أقول في نفسي.. لكل إنسان نصيب وقدر، وهذا ما

- قُسم لي بين الأقدار. وحين التقيت هذا الشاب، وبدأت
أسبح في مائه وقتوته.
- الأراجوز : وعلا الصباح في القاعة، وانهالت عليها الشتائم المبللة
بالبصاق.
- الصبية : قلت اخرس.. ودعني أتابع. حين أحببت، وتفتح جسدي
للحياة، حين تجاوزت شعوري بالذل والسوقية، أدركت أنني
لم أعد أحتمل الإهانة والاحتقار البارد. كان قدري يتوضح
في داخلي. ولم يخطر لي لحظة واحدة أن أخادع قدري، أو
أن أفر منه. بين الاحتقار البارد وهذا الحب الذي جددني،
وأوقد اللهب في جسدي. كان ينبغي أن أختار.. كان ينبغي
أن أقتل.
- الأراجوز : ماجت القاعة وهاجت. ألسنت نادمة؟
الصبية : (بعنف) لا.. لست نادمة. كان القدر قد رُتب كل شيء.
ولم يكن أمامي إلا القتل. كانت تلك فرصتي، رغم أن هذا
الولد البوّال، أفسدها.
- الشاب : (نائحاً) قتلت أبي.. قتلت أبي..
الأراجوز : يا أمجاد.. يا كرام.. تلك كانت جريمة العصر وملابساتها،
فماذا تحكمون؟
- المفرجون : (أصوات غاضبة وغير متناسقة) الموت.. الإعدام للخائنة..
الإعدام شنعاً وفوراً..
- الصبية : كلكم رجال خائفون.
المفرجون : اشنقوها.. اقتلوها فوراً..
- الصبية : كلكم تجهلون دماء الحب، وتعششون كالصراصير في
برودة الاحتقار.
- المفرجون : اشنقوها.. اشنقوها.
الأراجوز : (مرتبكاً) وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام..

اهدأوا.. اهدأوا..
 سماعب الجريمة في الترو واللحظة.
 (يجرها نحو السلم، واضعاً الحبل المعقود حول عنقها)
 يا أجواد.. يا كرام..
 هذه هي الحكاية..
 عائلة منكودة، ضربها الحظ بالقتل والخيانة.
 أسعفونا بعونكم! وبادرونا بما وجود به فضلكم..
 (يتحول عزف الهارمونيكاً قوياً، تتميز فيه إيقاعات راقصة
 وملينة بالفرح. يحمل الشاب وعاء، يدور فيه على الحاضرين.
 البعض يرمي قطعاً نقدية في الوعاء، والبعض الآخر ينسل
 متصلصاً من الدفع.
 تخفي الإضاءة في الساحة، بينما تظل بقعة ضوء على
 الشرفة، التي تقف عليها سناء والمرأة.)
 : لقد تملّ بدني. سناء
 : هذه امرأة تثير الدهشة. المرأة
 : إنها مخيفة. سناء
 : إنها عاشقة. المرأة
 : (وهي تدخل إلى البيت) إنني أرتعش. سناء
 : (وهي تبعتها) لا سعادة، إلا إذا ملكنا بعض جراتها. المرأة
 (يدخلان المنزل.)
 وتختفي الإضاءة.)

(٩)

قصة المراودة على الفساد

- عدنان يجلس أمام طاولة منزوية في مقهى شعبي. بعد قليل يتضم إليه سرحان.)
- سرحان : عجيب.. ما الذي جعلك تختار هذا المقهى البلدي؟
عدنان : وما له المقهى! هنا تعودت أن أنتظر صديقي شامل السيروان، الذي سيأتي من دمشق بعد قليل.
- سرحان : إذن لم تأتِ للقائي!
عدنان : وهل يحتاج الأخوة إلى مواعيد ولقاءات! حتى الآن ما زلنا نعيش في بيت واحد، ولدينا ما يكفي من الوقت، كي نتبادل الحديث. ومع هذا شغلت بالي. قل لي ماذا هناك؟
- سرحان : لا شيء.. فجأة لاحظت، أننا نادراً ما نتبادل الحديث. ولذا قررت أن نلتقي بعيداً عن البيت، كي نقلص البعاد، وتعود أن نتبادل البوح والكلام.
- عدنان : من جهتي.. لا يوجد بعاد، ولا لوم. فأنا أعرف أن الجامعة لا تترك وقتاً، كي تشغل بشؤون البيت والأخوة.
- سرحان : دعنا من الجامعة. أودُّ أن نتحدث عنك لا عني.
عدنان : عني أنا.. ماذا هناك؟ هل وجدت لي عروساً ملائمة.
- سرحان : العروس مسألة هيّبة، إذا فتحت عينيك، واقتنصت الفرص المتاحة لك.
- عدنان : وحقّ أخوتنا.. لا أفهم ماذا تريد أن تقول.
سرحان : إن أُمي محقة حين تصفك بالدرويش. أتعلم أنك تعمل في منجم من الذهب؟

- عدنان : هل تعتبر المرفأ، بما فيه من مشاكل وقذارات، منجماً للذهب؟ وحق أخوتنا لو اصطحبتك معي، لما استطعت أن تتحمل عفونة المرفأ ساعة من الزمان.
- سرحان : ما أعرفه.. هو أن المرفأ ممر للخيرات، وأن الشاطر كالمشاعر، يقتطع حصته في الدخول وفي الخروج.
- عدنان : (وهو يضحك) أتطلب مني كما يطلب العامة.. أن أكون منشاراً، يلهدف على الطالع وعلى الناظر؟
- سرحان : لماذا يدفع الموظفون إذن رشاوات سخية كي يتقلوا إلى المرفأ. ألم يقل مندوبنا السامي.. «إن أهل السياسة والعاملين في الدولة مثل المرأة، يظنون محترمين مهما خالفوا وأخذوا، شرط ألا يمسخهم الناس، وأيديهم في الكيس». والله أحب هذا ال دي مارتل ومجونه.
- عدنان : ولماذا يشغلك هذا العالم الفاسد الذي يعجج بالردائل؟ توقعت أن تحدثني عن الجامعة، حيث العلم والنقاء والمستقبل الزاهر. لو تعلم كم أنت محظوظ يا سرحان!

- سرحان : لا تبالغ في تقدير الجامعة يا عدنان، ولا تتحسر لأنها فاتتك. بين الجامعة والحياة خندق عميق. وما تتعلمه هو أحلام هشة، لا تصمد أمام خشونة الواقع الفعلي. لا.. لن أفني سنوات شبابي في دراسة الأوهام. إن الحياة رغم صعوباتها ومخاطرها تشغفني، وتناديني، كي أنتزع حصتي منها.
- عدنان : لا أدري لماذا تستعجل الحياة العملية إلى هذا الحد!
- سرحان : اتخذت قراري، والفرصة جاهزة كي نتعاون، ونقطف المنافع معاً.
- عدنان : ماذا تعني؟
- سرحان : لدي صديق تاجر، لا يعمل إلا بالبضائع الخفيفة والثمينة. وإذا غصَّ الموظف طرفه، ملأت الآلاف جيوبه.

- عدنان : وحقاً أخوتنا أكاد أنكرك. أتظن أنني لا أعرف هذه البضائع الخفيفة والثمينة؟ ما الذي قادك إلى هذه الأجواء المسمومة؟ أيعقل أن تأتي، أنت المثقف الذي نعتز به، كي تزين لي تهريب المخدرات وما شابهها؟
- سرحان : إنني أبسط أمامك الغنى والرفعة، وما تشتهي من المباحج.
عدنان : لا أريد هذه الثروة والمباحج المسمومة.
- سرحان : إذن.. هنا حفرةنا وهنا طمرنا.
عدنان : أقول لك بصراحة، لن أسمح لك بالتورط.
- سرحان : لا تحاول أن تكون وصياً عليّ. هذه حياتي، ولا أحتاج من يخطط لي كيف أعيشها. (وهو ينهض) كم تحب الفقر والدروشة يا أخي!
- (يدخل شامل السيروان، وهو دركي من دمشق، طويل القامة مليح الوجه)
- شامل : السلام عليكم.. لعلني تأخرت.
عدنان : (وهو ينهض مرحباً) أهلاً بك متى جئت. هذا أخي سرحان، وهذا صديقي شامل السيروان.
- سرحان : تشرفنا.. ولكن كنت أتأهب للخروج، فلا تؤاخذني.
شامل : لا.. أبداً. ليس بيننا تكليف.
- عدنان : ربما التقينا في البيت.
سرحان : (وهو يمضي) ربما.
- عدنان : تفضل.. تفضل.. (وهما يجلسان) اشتقنا لك يا رجل.
شامل : لم يعد هناك من يقبضون عليه.
- عدنان : هل كانت الإعتقالات واسعة.
شامل : لم يتركوا شاباً من شباب النوادي، أو الناشطين في الكتلة.
- عدنان : وما سبب هذه الحملات في رأيك؟
شامل : هناك سخط عام، وهناك الحرب التي تقترب.

- عدنان : أما زالت هذه المهمات ترهقك؟
شامل : ترهقني فقط! لقد حاولت كثيراً، أن أتملّص من هذه المهمات، ولكنهم أصرّوا عليّ وجودي كمنصر ضابط في القافلة. تصور أنك تنقل أبناء بلدك، الذين يدافعون عنك وعن البلد، لتضعهم في سجون الأعداء، وتحت رحمتهم.
- عدنان : هوّن عليك.. فنحن جميعاً نعيش حياة غريبة، ومليئة بالتناقضات. آه.. لو تعلم ما الذي كان يفتحنني به أخي!
شامل : هل قطعت حديثكما؟
عدنان : لا يا زلمة.. كان مجيئك رحمة.
شامل : أهى خلافات في العائلة؟
عدنان : إن الدنيا تهترىء، ولا يبتي فيها مكان للخير. وعلى كل هناك كلام لا يمكن يُقال، أو يُبلع إلا مع كأس من العرق. هيا أخي شامل..
- شامل : (وهو ينهض) والله لا أنكر أنني جائع، وأحتاج كأساً من العرق.
(تختفي الإضاءة.)

(١٠)

فصل القرار ونهاية الانتظار

- صالون البيت. سناء والمرأة. ترتدي سناء حجاباً سميكاً،
وتحمل حقيبة سفر صغيرة. يبدو أن المرأتين تأهبان للخروج
: سناء : كأنني في حلم.. أو كأن واحدة أخرى هي التي تشعر،
وتتحرك. لا.. هو شعوري. أحس أن قلبي كالخطاف، يريد
أن ينعق من صدري، وأن يسبقني إليه.
: المرأة : إذن.. لم تبقى هناك شكوك أو وساوس.
: سناء : لا شك أن هناك وخزات صغيرة في الأحشاء. إنني أترك
ورائي عمراً وأولاداً.
: المرأة : لا زريد أن نستفيق على التحسّر والندم.
: سناء : إن اللهفة التي أحسها، هي أغزر وأعنف من أن تترك مجالاً
للندم. في داخلي سيول من المشاعر. لا أعرف كيف
تكوّنت، ولا متى تدفقت. كل هذا جديد ومدوّخ. أكنت
تعرفين أن هذه هي علامات الحب؟
: المرأة : كنت أعلم أنك عاشقة، وكنت أعلم أن مقاومتك محزنة
وعقيمة.
: سناء : نعم.. لا شك أن هذا هو الحب. لم يعد يفارقني في ليلي أو
نهاري. أحس أنني أطفو فوق مشاعري، كما لو كنت ثمرة
يحملها بردى، تحم البيوت وفي الظلال، كي تلتقطها يدها.
: المرأة : ما الذي جعلك تذكّرين بردى الآن؟
: سناء : شيء غريب! إن عمري يختلط في ذهني، بلا نظام أو

- ترتيب. في لحظة أشعر أنني في الرابعة عشرة من عمري.
 المرأة : وأنتك تخرجين من البيت، خروج تلك الفتاة المبللة بالمطر،
 والتي كان أخوك يتعجل طلّتها.
- سواء : لم أكن أعرف سطوة الحب، ومعناه. لكن الهياج والحسد
 والانفعال، كل ذلك أرّقني الليل كله.
- المرأة : وتراكت السنون فوق السنون، وأنت تنتظرين، أن تعيشي
 هذه اللحظة التي ترتجف حياً وقلقاً وخوفاً.
- سواء : لا أدري.. إني في السابعة والثلاثين أو أصغر. أشعر أنني بلا
 عمر، وأن جسدي ينحل، ويذوب، كلما تصورت أنه
 يغمس يديه في الماء، منتظراً وصولي.
- المرأة : أتحمسين حقاً أنك ثمرة يحملها بردى إليه؟
 سواء : بردى.. والسنوات.. والأحلام الغامضة.
- المرأة : إذن.. لماذا نلتكأ؟ دعينا نعض.
 سواء : لا أستطيع أن أمضي، قبل أن أرى ابنتي ليلي. امضي أنت..
- المرأة : ألن تتراجعني؟
 سواء : أوه.. ما كنت لأحمل حقيقتي، لو أن هناك مجالاً للتراجع.
- هيا امضي، ولا تقلقي.
 المرأة : الأفضل أن أمضي. حين تنظر إلي، أحس أنها تغمد سكيناً
 في وجهي.
- سواء : أرجوك لا تلوميها.
 المرأة : من المؤكد أنني لا ألومها. (وهي تخرج) لا تتأخري.
- سواء : هي بضع دقائق، لا أكثر. (تختفي المرأة. تنظر ساء إلى
 الساعة، تمشي بضع خطوات قلقة. تحمل الحقيبة، ثم تضعها
 على الأرض. تفتح حقيبة يدها. تخرج امرأة صغيرة، وتنظر
 إليها) يا الله.. ما أشد شحوبي! (تتاوّل من الحقيبة علبة
 صغيرة، وتحاول أن تضع بعض الحمرة على خديها. تسمع

- وقع أقدام، فتعيد كل شيء إلى الحقيقة، وتغلقها. تدخل ليلي)
- الحمد لله أنك لم تتأخري.
- ليلي : (تقبل أمها، ثم تأملها) ولماذا ترتدين الحجاب؟
- سناء : إنني أحتاج سترته.
- ليلي : ماذا هناك، وما هذه الحقيقة؟
- سناء : (وهي تغض بالبكاء) منذ يومين، وأنا أرتب في رأسي الكلمات والعبارات، كي أجيب علي أسئلتك. وها أنا مرتبكة.. لا أجد عبارة واحدة مما حضرت!
- ليلي : ولماذا تحتاجين إلى ترتيب الكلمات والعبارات؟
- سناء : لأنني..
- ليلي : لأنك؟
- سناء : (باندفاع) لأنني سأترككم.
- ليلي : تركيننا! إلى أين؟
- سناء : (والدموع تساب من عينيها) ربما كان مخجلاً أن تحدث الأم ابتها عن أمر كهذا. أنت أقرب أولادي إلى قلبي، وأريد أن أشاطرك سرّي. إن أمك على حافة الجنون يا ليلي.
- ليلي : (مبهوثة) أمي! ماذا تقولين؟
- سناء : لا أعرف كيف حدث ذلك! لعلني كنت أنتظره منذ كنت في سنك.. أو لعله كان شوقاً ظل يتخمر، ويكبر، حتى انفجر في داخلي، وأفقدني صوابي.
- ليلي : ماذا تريدان أن تقولين؟
- سناء : (متضرعة) أرجوك لا تكوني قاسية، وحاولي أن تفهميني. قاومت كثيراً، وعاندت نفسي طويلاً، ولكن لم أستطع. كان ذلك أقوى مني. كان كالمرض الخفي، ينمو داخلي، وفي غفلة عني. أعرف أن هذا كله، لن يبرّزني في عينيك. ولكن ماذا أفعل؟ تلك هي الحقيقة. إنني أحب رجلاً، وأريد

- أن أعيش معه.
- ليلي : أمي.. لا تقولي إنك جادة. هذا شيء لا يُعقل!
- سناء : آه يا ابنتي.. قد أكون مخبولة، أو ممسوسة. ولكني لم أكن في حياتي أكثر جدية وتصميماً مما أنا عليه الآن.
- ليلي : ونحن.. هل فكرت بنا ولو قليلاً؟
- سناء : بل فكرت فيكم كثيراً، ووجدت أنكم تستطيعون الاستغناء عني دون مشقة.
- ليلي : والفضيحة؟ كيف يمكن أن نواجه الفضيحة؟
- سناء : لن يعرف حقيقة اختفائي سواك. حملتك سرّي، لأنني أعرفك كتومة، ولأنني أتمنى أن يظل بيني وبينك أمل ورابطة.
- ليلي : (متفجرة بالبكاء) أماه.. أبوس يدك.. أتوسل إليك أن تراجعني فرارك.
- سناء : اسمعي يا ابنتي.. لقد أمضيت عمري كله، لم أتخذ فيه أي قرار. كانت القرارات دائماً مُبرمة، وما علي إلا أن أنفذها.
- واليوم.. حين استطعت، بعد عذاب يفوق عذاب المخاض والولادة، أن أتخذ قراراً لِنفسي وبنفسي، لن أتخلى عنه، ولو كان فيه مماتي. (وهي تحضنها، وتقبل رأسها) أتفهميني يا ليلي! أرجوك أن تفهميني.
- ليلي : حتى لو فهمتك، فإني لا أستطيع أن أقبل ما تفعلينه. ماذا سأقول لأبي وإخوتي حين يسألون عنك؟
- سناء : (وهي تفتح حقيبتها، وتخرج منها ورقتين مطويتين) لست مضطرة لأن تقولي لهم شيئاً. (تناولها الورقة الكبيرة) أعطي هذه الرسالة لأبيك وإخوتك. وإذا اشتقت لي يوماً، فهذا هو عنواني. (تقد لها الورقة الصغيرة)
- ليلي : لن أشتاق إليك، ولا أريد أن أعرف أين تكونين.
- سناء : لا ألومك.. وعلى كل إذا خف غضبك واشتقت لي،

ستجديني في بيت حبيب الشمالي، الكائن في أعلى
جونيه. لو لم تكوني الأثيرة إلى قلبي، لما أعطيتك سري.
فكوني كنومة يا ليلي، ولا تفضحي أمك.
(تقبلها بنهم وشغف، ثم تمسح دموعها، وتحمل حقيبتها،
وتمضي)

ليلي : (وهي تمسك بشابها) أماه..
سناء : في خريف العمر، أحببت وقررت يا ابنتي. ولم أترك أمامي
سبباً للتراجع.

ليلي : أماه..
سناء : (وهي تملص منها، وتخرج بخطى عجل) عيشوا حياتكم،
ولا تفكروا بي.

ليلي : (تجحظ عينها، وتظهر تشنجات متزايدة في وجهها وأطرافها)
أمي عاشقة.. أمي عاشقة.. جونيه.. ما اسمه.. أسفل
جونيه.. أعلى جونيه.. لا أذكر.. لا.. لا.. لا..
(تسقط على الأرض متخبطة.
وتختفي الإضاءة.)

وقع أقدام، فصيد كل شيء إلى الحقيقة، وتطلقها. تدخل ليلي)
الحمد لله أنك لم تتأخري.

ليلي : (تقبل أمها، ثم تأملها) ولماذا ترتدين الحجاب؟

سواء : إني أحتاج سترته.

ليلي : ماذا هناك، وما هذه الحقيفة؟

سواء : (وهي تفضّ بالبكاء) منذ بومين، وأنا أرتب في رأسي
الكلمات والعبارات، كي أوجب على أمسلك. وما أنا
مرتبكة.. لا أجد عبارة واحدة مما حضرت!

ليلي : ولماذا تحتاجين إلى ترتيب الكلمات والعبارات؟

سواء : لأني..

ليلي : لأنك؟

سواء : (باندفاع) لأني سأترككم.

ليلي : تتركينا! إلى أين؟

سواء : (والدموع تتساب من عينيها) ربما كان مخجلاً أن تحدّث الأم
ابتها عن أمر كهذا. أنت أقرب أولادي إلى قلبي، وأريد أن
أشاطرك سري. إن أمك على حافة الجنون يا ليلي.

ليلي : (مبهوطة) أمي! ماذا تقولين؟

سواء : لا أعرف كيف حدث ذلك! لعلني كنت أنتظره منذ كنت
في سنك.. أو لعله كان شوقاً ظل يتخمر، ويكبر، حتى
انفجر في داخلي، وأفقدني صوابي.

ليلي : ماذا تريدن أن تقولني؟

سواء : (متضرعة) أرجوك لا تكوني قاسية، وحاولي أن تفهميني.
قاومت كثيراً، وعاندت نفسي طويلاً، ولكن لم أستطع.
كان ذلك أقوى مني. كان كالمرض الخفي، ينمو داخلي،
وفي غفلة عني. أعرف أن هذا كله، لن يبرئني في عينيك.
ولكن ماذا أفعل؟ تلك هي الحقيقة. إني أحب رجلاً، وأريد

أن أعيش معه.

ليلي : أمي.. لا تقولي إنك جادة. هذا شيء لا يُقبل!

سواء : آه يا ابنتي.. قد أكون مخبولة، أو ممسومة. ولكني لم أكن
في حياتي أكثر جدية وتصميماً مما أنا عليه الآن.

ليلي : ونحن.. هل فكرت بنا ولو قليلاً؟

سواء : بل فكرت فيكم كثيراً، ووجدت أنكم تستطيعون الاستغناء
عني دون مشقة.

ليلي : والفضيحة؟ كيف يمكن أن نواجه الفضيحة؟

سواء : لن يعرف حقيقة اختفائي مارك. حثثك سري، لأني
أعرفك كترمة، ولأني أتمنى أن يظل بيني وبينك أمل ورابطة.

ليلي : (متفجرة بالبكاء) أماه.. أبوس يدك.. أتوسل إليك أن تراجعني
فراخ.

سواء : اسمعي يا ابنتي.. لقد أمضيت عمري كله، لم أتخذ فيه أي
قرار. كانت القرارات دائماً ثمرية، وما علي إلا أن أنفذها.

واليوم.. حين استطعت، بعد عذاب يفوق عذاب الخاض
والولادة، أن أتخذ قراراً لنفسي وبنفسي، لن أتخلى عنه، ولو
كان فيه ماتي. (وهي تمسحها، وتقبل رأسها) أتفهميني يا
ليلي! أرجوك أن تفهميني.

ليلي : حتى لو فهمتك، فإني لا أستطيع أن أقبل ما فعلته. ماذا
سأقول لأني وإخوتي حين يسألون عنك؟

سواء : (وهي تفتح حقيبتها، وتخرج منها ورقين مطويين) لسبب
مضطرة لأن تقولني لهم شيئاً. (تناولها الورقة الكبيرة) أعطني
هذه الرسالة لأبيك وإخوتك. وإذا اشقتك لي يوماً، فهذا هو
عنواني. (تعدّها لها الورقة الصغيرة)

ليلي : لن أشتاق إليك، ولا أريد أن أعرف أين تكونين.

سواء : لا ألوملك.. وعلى كل إذا خفّ غضبك واشتقت لي،

- الحفيد : كان صعباً أن تذكر أُمِّي ماذا أصابها. سقطت على الأرض، ودخلت في غيبوبة، لا تذكر متى استفاقت منها، ولا كيف فقدت القدرة على التعلُّق بعدها. لجأتُ إلى خالتي، ورجوتها أن تنبش ذاكرتها.
- سلمي : نسيتُ تلك المسخرة، ولا أريدُ أن أتذكرها.
- الحفيد : ما عاد أحد يتذكر سواك. أرجوك لا تبخلي عليَّ بحكاية تلك الوقائع.
- سلمي : وما حاجتك إليها؟
- الحفيد : ألا يحتاج المرء أن يعرف أهله والناس الذين يحمل هويتهم.
- سلمي : كأنك تحبُّ تاريخاً مخجلاً، يطلع صباك وكبرياءك.
- الحفيد : ومع هذا فأنا مصرٌّ على متابعة الإلحاح.
- سلمي : أف.. يوماً شمعتُ أني أفقد رفعتي وتثيري. وحين استدوي الفضيحة، ستغدو كالشوقفة والماعة من أهل الحي. لا رفاقة.. ولا شيء إلا الشوقفة والابتئال.. أما كان يمكنها أن تتخذ عشيقاً بالخفاء، وتوفر علينا الثثرة، وتئاتم العامة؟ في ذلك اليوم، تيقنتُ أنني سأخسر كل ما أصبو إليه، إذا لم أقطع صلتي بالبيت. لم بغضبني ما فعلته، بل أغضبني الأسلوب البلدي والفاضح، الذي فعلته به.
- الحفيد : رأيتُ نمين يا خالة.. ولكن الوقائع هي التي تهمني الآن.
- سلمي : جاهدت طويلاً كي أنسى تلك الوقائع. لقد غدت بعيدة، ولا أدري ماذا بقي منها في الذاكرة!
- الحفيد : أرجوك أن تنبشي ذاكرتك جيداً.
- سلمي : أف.. ما أشدُّ إلحاحك! سأحاول.. سأحاول..

ستجديني في بيت حبيب الشمالي، الكائن في أعلى جونية. لو لم تكوني الأثيرة إلى قلبي، لما أعطيتك سري. فكوني كتومة يا ليلي، ولا تفضحني أمك.

(قليلها بنهم وشغف، ثم تسح دموعها، وتحمل حقيبتها، وتغضي)

- ليلي : (وهي تتمسك بياها) أماه..
- سناء : في غريف العمر، أحببت وقررت يا ابنتي. ولم أترك أُمامي سبيلاً للتراجع.
- ليلي : أماه..
- سناء : (وهي تتملص منها، وتخرج بخطي عجلي) عيشوا حياتكم، ولا تفكروا بي.
- ليلي : (تجمّط عندها، وتظهر تشنجات متزايدة في وجهها وأطرافها)
- أمي عاشقة.. أمي عاشقة.. جونية.. ما اسمك.. أسفل جونية.. أعلى جونية.. لا أذكر.. لا.. لا.. لا..
- (تسقط على الأرض متحيرة.)
- (وتغضي الإضاءة.)

فصل الغضب والدموع

(يضاء الصالون، ويظهر الأب عبد القادر والأولاد عدنان وسلمى وسرحان وليلى، التي يبدو عليها الإرهاق والخوف.)
: لا أذكر كيف اجتمعوا.. ولكن كنا جميعاً مستترين في الصالون، نتبادل نظرات متوجسة وحائرة. وكانت أمك ليلى ممتعة الوجه. عاجزة عن النطق. تنقل بصرها بيننا بيلاهة وخوف.

عبد القادر : (متحيراً وغاضباً) ماذا يجري؟ أين أمكم؟

سلمى : حقاً.. أين أمي؟

(تصوّت ليلى، باكية وفرحة)

عبد القادر : ما هذا النباح؟ (يضعها) تكلمي!

سلمى : أبي.. لا شك أنها مريضة، وتحتاج إلى عناية طيب.

عبد القادر : وما هذا المرض المفاجئ الذي يربط اللسان؟ أريد أن أعرف.

اذهبي ونادي أمك!

(تساب الدموع غزيرة من عيني ليلى، تدور في الصالون، وكأنها تبحث عن شيء. تصرف حظة هنا وهناك. فجأة تصوّت حين تغدو قرب الفراغون. تتناول عن القرص الأسود ورقة بيضاء مطوية، وتحملها إلى أبيها. يجتذب الفضول سرحان وعدنان كي يفتريا من الأب.)

عبد القادر : ولكن ما هذا؟ ما هذا؟ أصبح ما قرأه عيناى؟

سرحان : أبي.. أخبرنا ماذا هناك؟

عبد القادر : ماذا هناك! ينبغي أن أذبح وأقتل.. جعلتني عزة بين

الرجال.. وسنغدو جميعاً مضعة في الأفواه..

: لم أجد أمي في البيت.

عبد القادر : طبعاً لن تجدتها. لقد رحلت.. وهي تطلب من أجلنا ومن

أجلها، ألا تبحث عنها. أريد أن أعرف.. متى نشأت

وترعرعت الحياة في هذا البيت؟

عبدان : هنا شيء فظيع.. شيء فظيع..

سرحان : لا أفهم.. هل تعني.. أن أمي.. هربت.. مع..

عبد القادر : ما أشد براعة أولادي! ولماذا تهرب إن لم يكن هناك حشون

قد غرود لها، وأغواها. هذا الرجل لا يمكن أن يكون مرتجلاً،

ولا ابن سمته. لا شك أنها تربيته منذ وقت طويل. ولا يمكن

أن تغفلوا جميعاً عن هذه الترتيبات.

: أبي.. أيمن أن تظن..

سلمى

عبد القادر : لا أدري ماذا أظن.. هذا العمل مطبوخ على نار هادئة. وهي

تطلب ببساطة أن ننسأها، وأن نغفر لها إن استطعنا. لا يمكن

أن يتم ذلك دون أن يلاحظه أحد منكم. وأنت.. (يقتررب

من ليلى. يمسك شعرها بقسوة، ويهز رأسها) ما الذي

تخفيته! وما معنى أن تفقدي النطق هذا اليوم بالذات؟

(تصوّت ليلى بلوعة ودعب)

عبدان

: (يحان) أبي أرجوك أن تهدأ. إنها مريضة، ولا نعرف ماذا

أصابها.

عبد القادر

: وأنا مريض.. ومهان.. ولا أعرف كيف أهدئ فوران دمي.

أنا عبد القادر الطحلاوي.. نفق امرأتي من تحت فخذي،

وتجعلني ديوئناً له قرنان. وأولادي عيونهم ساهية، يشغلون

أباهم بالمظاهر والتمهّن. أهنا هو التمهّن؟

(يجرق ثيابه الإفريقية، ويومعه على الأرض بادناً بالسترة)

: أبي.. أتوسل إليك أن تهدأ. لا تدع نزوة أمي تضبّع المستوى

سلمى

- المرموق، الذي حققناه.
- عبد القادر : أهدأ هو المستوى المرموق، الذي كنتم تلتمعوننا إليه! أن تفروا
الروجة والألم مع رجل نكرة، وأن تكفوا بالهدوء، واعتبار
الحادث نزوة! (يوصل تزييق ملابسهم) خذوا تمدنكم.. خذوا
رقيقكم.. خذوا عماكم.. خذوا العار والبسوه..
- (لم يعد يسره إلا القميص والسرور الداخلي. والزيد يتجمع
على زاويتي فمه. تجلس ليلى على الأرض، تخفي رأسها في
حضانها، وتخرط في بكاء صامت.)
- عدنان : (ذاهلاً) أمي تفروا مع رجل.. هذا شيء فظيع.. شيء فظيع..
عبد القادر : وأنت.. بدلاً من الولولة، لماذا لا تتصرف تصرف الرجال!
عدنان : ماذا تريدني أن أفعل؟
عبد القادر : أيها المقدم.. أيها المغوار.. أيها الدركي اليقظ.. أليس عمك
مطاردة المجرمين والقبض عليهم! فما بالك إذا كان المجرم أمًا
زانية، هجرت بيتها وأولادها.
- عدنان : أريدني أن أبحث عنها؟
سرحان : (وهو يصيح بالكاء) أما أنا فقد ضاع مستقبلتي. كيف
أستطيع أن أواجه زملائي في الجامعة؟ لو انتشر الخبر فلن
أدخل حرم الجامعة أبداً.
- سلمي : كلما زادت ضحكتنا، كلما كبرت فضيحتنا.
عبد القادر : وماذا تقترحين؟
سلمي : أن نخفي القصة، وأن نسدل عليها ستاراً من الصمت.
سرحان : وأنا أشاطرك الرأي تماماً.
عبد القادر : ولكن.. اشرحا لي كيف يمكن أن نخفي هذا العار؟
سلمي : سنقول إنها مريضة، وإنها أثرت أن تقضي فترة من الراحة
عند أهلها في الشام.
عدنان : أئن نخبر بيت جدي في الشام؟

- سرحان : طبعاً.. يجب أن نخبرهم كي يساعدونا في تغطية القصة
جيداً.
- سلمي : وأثناء ذلك، يمكن أن نغير البيت والحي.
- عبد القادر : ألا يشغلكم إلا لقلقة الموضوع؟ لم أسمع واحداً منكم
يتحدث عن غسل العار! ألا توجد في صدوركم نخوة؟ ألا
توجد في عروقكم دماء تغضب، وتنفور؟
- سلمي : أي.. لن نطلب منا أن نعود إلى زمن الهمجية والجهل.
سرحان : هذه العادات البدوية الذميمة، محتها المدنية الحديثة.
- عبد القادر : (منفجراً) اخرجوا من حضرتي.. اخرجوا، واتركوني وحدي.
سلمي : (مقتربة من سرحان) كل هذا بلدي ومبتذل. ماذا تفكر؟
سرحان : لا شيء.. سأخرج ولن أعود.
سلمي : وأنا كذلك. هل جرحك ما قلته؟
سرحان : لا أبالي.. ولست بحاجة إلى أم.
سلمي : أوه.. كم نحن متشابهان!
- عبد القادر : ألم تسمعوا ما قلت؟ اخرجوا واتركوني.
(يخرج سرحان وسلمي بخطى وقحة ولا مبالية. تنهض ليلى،
وتخفي إلى داخل البيت.)
- عدنان : (وهو يهيم بالخروج) هذا فظيع.. فظيع جداً! (يتردد) أي..
أعدك أن أجدها، وأن أغسل العار الذي يطأطئ رؤوسنا.
(يخرج بخطى مهلهلة)
- عبد القادر : متى بدأ ذلك؟ أين كنت؟ ولماذا لم ألاحظ؟ هل نواطأ
الأولاد معها! (تعود ليلى، حاملة قبازاً ووزناراً وميتاناً). نعم..
هذه هي الثياب التي أرتاح فيها. ثياب العز، والأيام البهية.
(تساعده ليلى، ويكثر من الحنان، على ارتداء ملابسهم)
أرأيت! ليس لدى إخوتك أية مروة.. ربما عدنان، ولكنه
بليد وقليل الحيلة. قول لي يا ابنتي ماذا أصابك؟ حاولي أن

تنطقي .. (تبذل ليلى مجهوداً كبيراً، فلا تُخرج إلا أصواتاً كالخشخشات) هل رأيت أمك؟ (تهز رأسها علامة النفي). بعد أن يفرغ من ارتداء ملابسها. يجلس على الأرض، ويجلس ليلى إلى جوارها) أنا لا أنهم دونها! كنت أحبها.. وكنت أظن أنها تعرف ذلك دون أن أبرح به.. ما الذي كان يعني من الاعتراف بما أحمله لها من حب وحرص..! ما الذي كان يجعلني أفسو عليها! (فجأة.. يميل نحو ابنته. يسكها من كتفها، ويهزها بقسوة) قولني لي ماذا تعرفين؟ وكيف تصادف أن تفقدي النطق هذا اليوم بالذات؟ هل توأطأت جميعاً كي تترقوني بالعار؟ (يضع ليلى بقسوة) انطقي.. (يسيل الدم من فمها. تصوت، وتهز رأسها علامة النفي) يا الله.. إني وحيد. لو عرفت كم كنت أحبها، وأرغبها، لما خطر لها أن ترحل. والآن..

(ينخرط في البكاء، وتخرط ليلى هي الأخرى في البكاء. وتدريجياً تخفي الإضاءة)

الحفيد

: هناك فجوات كثيرة، لم أجد ما يسعفني على ملتها إلا خيالي. وعلى كل، كنت كلما تقدمت في عملي أدرك أن ما أحصمه، وأرتبه، ليس إلا أخباراً، يتشابه فيها الحقيقي والخيالي معاً.

(١٢)

فصل استملاك الماضي

(غرفة نوم في بيت صغير وجميل، تحفُّ به أشجار الصنوبر. إنه بيت ريفي يزوي على رابية بعيدة قليلاً عن المدينة، التي تمتد تحتها وحتى شاطئ البحر. سناء وحبيب يجلسان على السرير باسترخاء. ويتبادلان نظرات ولمسات مثقلة بالهيام.)

- سناء : ما أجمل كلامك! إن لمعان عينيك حين تتكلم ينفذ إلى القلب، كأنه هزة أو بلبال.
- (يمتد بين فخلتها، ويطلق ردفها، فيما تداعب سناء شعره بعدوياً. بعد فترة، تنتهي من صوب الأشجار خشخشة قوية، فيجفلان. يتبادلان النظرات المسائلة، ثم ينهض حبيب بخفة، ويحتاز الغرفة على رؤوس أصابعه إلى خزائن في الطرف الآخر. يفتحها، ويخرج منها بندقية صيد. يكرسها، ويتأكد أنها ملقمة)
- سناء : (هامسة برعب) ماذا تفعل؟
- حبيب : لا تخافي.. سأنفذ المكان، وأعود.
- سناء : لا.. أرجوك لا تخرج.
- حبيب : (وهو يرسل لها قبلة بإصبعه) لا تقلقي.. لن أغيب إلا برهة قصيرة.
- (يفتح الباب، ويخرج)
- حبيب : (يتأهى صوته من الخارج) من هناك؟
- (صوت خشخشة قوية. أصوات جري وخشيش، يلوها دوي إطلاق نار)
- سناء : (مزعزعة وهلعة) يا رب.. أيمكن أن يكونوا قد اعتدوا إلى المكان، وربما سالت دماء.. وأية دماء أولادي، أو دماء.. (تنب من القرائش، وتخرج من الغرفة، وهي تتادي حبيب.. حبيب.. حبيب..)
- حبيب : (يتأهى صوته من الخارج) لا تخافي.. لا تخافي.. إنه تلب صخبر.
- سناء : تعال.. أرجوك تعال!
- حبيب : (وهو يطق جسدنا، ويعود معها إلى الغرفة) ما لك؟
- سناء : إني خائفة.. وركبتاي تتصمقان تحت جسدي.

- حبيب : أكان ذلك ممعاً؟
- سناء : (تدير وجهها بعوكة ساحرة) إني أستحي.
- حبيب : هذه قشور ينغي أن نزيلها.
- سناء : لا تنس كيف تربيت، وكيف عشت.
- حبيب : (وهو يقبل أصابع يدها واحداً بعد الآخر) والآن.. سنبدأ تربية جديدة، وعيشاً جديداً. هل كان ذلك ممعاً؟
- سناء : ألا يمكن أن تمهل علي بالأئلة؟
- حبيب : هل أفهم أنه كان ممعاً؟
- سناء : (مندهشة) لا.. لا.. لم أجرب شيئاً كهذا في حياتي.
- حبيب : (وهو يغمز وجهه في حضنتها) أكان جديداً إلى هذا الحد؟ لماذا لا نجيبين؟
- سناء : قلت لك.. إني أستحي.
- حبيب : اصغي إلي يا حبيبتي! بعد انتظار وطول شقاء، وجدنا الجمئة، التي تحضنا. وفي الجمئة لا ثياب، ولا حياء، ولا خوف. ينغي أن يقشّر كل منا الآخر. أن يفسله، وينقيه، حتى نغدو عرباً صريحاً وجميلاً. إن الجمئة التي تدخلها، تمدنا بلذات لا تنفد، ومسرات لا تحصر.

- حبيب : (وهو يضعها على السرو) وما الذي أحافظك إلى هذا الحد؟
 سناء : راودتني أفكار رهيبة.. حبيب.. قل لي.. إذا جاء أحد أبائتي،
 وحاول الاعتداء علينا، أفطلق عليه النار؟
 حبيب : أهذا ما كنت تفكرين به؟
 سناء : نعم..
 حبيب : تلك هي النقطة الجوهرية، التي كنت أوجل الحديث فيها إلى
 حين.
 سناء : وما هي هذه النقطة؟
 حبيب : (وهو يقلل يدها، ويداعب شعرها) ستظل هذه الوسواس تقلق
 بالك، ما لم تنفض الذاكرة، ونعيد ترتيبها، حدثاً حدثاً،
 وتفصيلاً تفصيلاً. لا يكفي أن يدبر المرء ظهره للماضي، كي
 يمنع الماضي من ملاحقته.
 سناء : وهل تظن أن ذلك ممكن؟
 حبيب : قبلي أولاً، ثم أجيئك. (يقبله) سنبداً منذ كنت طفلة تحبو
 في ذلك البيت النمشقي. حين تتوغلين في تذكر طفولتك،
 ما هي الذكرى الأولى التي تخطر لك؟
 سناء : أوه.. ذلك صعب.
 حبيب : أغمضي عينيك، وحاولي أن تتذكري.
 سناء : (تغض عينيها، وتفكر. بعد فترة) أرى أبي يدخل الدار، وأنا
 أجري لقاؤه واتمسك بساقه. رفضني عن الأرض، ثم رمانني
 في الهواء، وتلقاني بيديه المفتوحتين، ويقلني على خدي، ثم
 أنزلي إلى الأرض.
 حبيب : وأنا كنت أنظر إليك، وأغبطك. والآن ما هي الذكرى الثانية
 التي تخطر ببالك.
 سناء : أنت.. وأين كنت؟
 حبيب : كنت على سطح بيتنا، أحتلس النظر إلى أرض دياركم.

(١٣)

فصل العار عند التجار

- (في مخزن السيد عبد القادر الطحاوي. عبد القادر وبهجت
العجان، وهو أخو سناء زوجة عبد القادر)
: يا زلة.. قل شيئاً يستوعبه العقل. **بهجت**
: استوعب ما قلته لك.. لأن هذا ما جرى. **عبد القادر**
: هكذا.. تركت البيت وهربت؟ **بهجت**
: نعم.. كان الماء يجري من تحتي، وأنا لا أدري. ا بلا علامة أو
أمانة، تركت البيت و.. ريت! **عبد القادر**
: إنك تذهلني.. هذه ابتناء، وقد أحسنا تريبتها. **بهجت**
: أتمم ريتيم، وأنا جنيت الثمرة الموة. **عبد القادر**
: هل بدت عليها عوارض اختلال أو جنون؟ **بهجت**
: لا اختلال ولا جنون، بل هي ميول خفية للفحش والزذلة. **عبد القادر**
: هي أم أولادك يا عبد القادر أفندي.. **بهجت**
: وهي ابنتكم يا بهجت أفندي.. وأعتقد أن عارها يطالكم،
أكثر مما يطالنا. **عبد القادر**
: طبعاً.. لا يشرفنا ما فعلت، ولن نسكت عليه. ولكن لماذا
تريد أن تضع العيب كله علينا؟ **بهجت**
: لأن المنبت هو الأصل. **عبد القادر**
: حين تزوجتها كانت فتاة نقية كحجر كريم. عُثت معها
ضعف ما عاشت بيننا، وأنجبت منها شباباً وصبايا، فلماذا لم
تحافظ عليها، وتمنع الفساد من التسرب إلى قلبها؟ **بهجت**
: لم يبق إلا أن تتهمني بأني ديوت، وبأنني سهلت لها الزنى. **عبد القادر**

بذكريات أمي الشاحبة، كنت ألتهم كعب المدرسة، وكل ما
تقع عليه يداي من الكعب والمجلات. كانت هناك علامات
غامضة تثير خيالي، وتشعل فضولي. بين شحوب أمي،
وحيوية عمتي، كنت أتلئس صورة ضائعة. هي ذكرى..
هي رغبة.. هي فورة.. لست أدري لكنني متأكد أن فيها
بشئي، وأن ما يدفئني للجري وراءها، هو قدر لا يُرَدُّ.

- : وهل وجدت ما تبحث عنه؟ **سناء**
: إني أجده. نعم.. أعتقد أنني أجده. (فجأة يعود إلى اللعبة) يا **حبيب**
حرام.. انظري، إنها ترجف وتررق من البرد. أليسها
الفسنان.
: أين هو؟ إني لا أجده! **سناء**
: خذي.. ها هو. **حبيب**
(يستمران في اللعب.. والكلمات هي البدائل الرمزية للأفعال
والأشياء. يستمر المشهد فترة طويلة..
ثم تخفي الإضاءة.)

- بهجت** : معاذ الله أن أقصد ذلك يا عبد القادر أفندي! كل ما عينه، هو أن الزوج وأب الأولاد يتحمل عار المرأة قبل الجميع.
- عبد القادر** : بل يتحمل عارها من أنجها وريثها.
- بهجت** : يا عيب الشوم.. أتهرب من حماية شرفك وعرضك!
- عبد القادر** : لولا الميت السيء لما انحرفت المرأة، أو مثل شرفي ما يشينه.
- بهجت** : أنت تحدث عن الميت السيء! بالله.. في صدري كلام لو قلته لك لأخجلك، ومنعك من التصادي.
- عبد القادر** : وأنا!.. أليس في صدري كلام؟ هل أجهل أن خطف النساء أو هروبهن، هو جزء من تقاليد النيب الطيب. دعنا نحاش التجريح، وبيننا مصالح يجب أن نراعها. أجبني بصراحة.. أتحمّل عارها، وتدفعه في دمشق، أم لا؟
- بهجت** : بل إحمله أنت، وحاول أن تدفعه في بيروت. وعلى كل لم طاوحتك، فستغدو جرسه الشام، ويصيب أعمالنا الضرر والكساد.
- عبد القادر** : إذن.. ليم كل على الجانب الذي يريحه. وما دامت المصلحة هي الأساس، فسأبحث أنا أيضاً عن مصلحتي.
- بهجت** : ماذا تعني؟
- عبد القادر** : أعتقد أن الاتفاقات، التي كانت تربطنا، لم يعد لها ما يسندها أو يبررها. منذ يومين قُدم لي عرض مجزٍ لشراء باخرة طحين أسترالي. الآن لم تعد توجد أية اعتبارات تمنعني من إنجاز الصفقة.
- بهجت** : ماذا تقول يا زلمة؟ لقد اشترينا المطاحن الجديدة بناءً على إلحاحك. ألم تصهد أن تشتري نصف الانتاج، مهما تقلبت السوق، أو تطّرت الظروف؟
- عبد القادر** : ليس بيننا أي اتفاق مكتوب.
- بهجت** : ومتى كان بيننا اتفاق مكتوب؟! إن الرجل يُربط من لسانه،

- لا من قلمه.
- عبد القادر** : واليوم تبين أننا نتكلم بلسانين مختلفين، وأن رابطة المصلحة أقوى من رابطة الكرامة.
- بهجت** : إنك تخرب بيتنا!
- عبد القادر** : وأنا.. ألم يُخرب بيتي؟ تثاررت عائلتي.. وعماً قريب سأواجه العيش وحدي.. وفي سني هل أستطيع أن أحصل على زوجة لائقة، إلا إذا بسطت يدي، وغمرتها بالعطايا والهدايا.
- بهجت** : إذا كان تمويض ماليّ يمكن أن يُصلح الأمر، فإني مستعد.
- عبد القادر** : وهل تراني أتسؤل؟ كان بيننا نسب هو الذي يكتل يدي، ويضيق الفرس أمام تجارتي. أما الآن.. فقد خطف الفجور النسب الذي كان. ولا أحد يستطيع أن يلومني، إذا حرّرت تجارتي، ودرت وراء مصلحتي.
- بهجت** : أكنت تبيت هذا الفدر منذ زمن طويل؟
- عبد القادر** : لم أكن أتيت شيئاً قبل أن تُبرز أخطك خميرتها الفاسدة.
- بهجت** : اللعة على أمتي.. دعنا منها والنساء غيرها كثير. إذا نقضت الاتفاق، فستجبرنا على بيع المطاحن، وإعلان إفلاسنا. إسمع.. إن مسألة خراب البيوت لا يمكن أن تمرّ بسهولة. إنها مسألة حياة أو موت.
- عبد القادر** : قبل أن تهديني، اذهب واغسل عار أخطك المصونة.
- بهجت** : ألا توجد فرصة للاتفاق؟
- عبد القادر** : يا بهجت أفندي.. لم تعد لي في الاتفاق مصلحة. إن أرباح الاستيراد مضمونة ومغرية.
- بهجت** : أيها الديوث الحفيرا لم تخطف أختي إذ ركبك لك قرنين. وإليك أن تعتقد أنك ستفعلت بفعلتك.
- عبد القادر** : اذهب.. وغرّ في غير هذا المكان. (سادياً) يا سالم.. يا إبراهيم.. هاتا الشكلين وتعالا!

: (وهو يهجم على عبد القادر، ويطبق يديه على عنقه) وهل
تظن أنني أخاف كلابك!
(يأتي سالم وإبراهيم، تملأ أصوات الضجار والسباب.
وبعد قليل تخفي الإضاءة.)

(١٤)

فصل الجنِّي والجسد المسكوف

- ليلي : كيف أضف لك يا ابني. بعد فرار أمي، تحول أبي إلى رجل
غيور وطاغية. كان يكفي أن يلحقني أنظر من النافذة، حتى
ينهار علي ضرباً. حول البيت إلى سجن، وحولني إلى
رهينة، يتقن في تعذيبها. كان يرتاب بأني أخفي شيئاً،
وكان لا يكفُّ يصرخ ويتساءل.. أريد أن أعرف ما الذي
لجم لسانك؟! اصطحبتني إلى أطباء كثيرين، ولم نستفد
شيئاً. ثم بدأ يأتيني بالمشايخ والمجاورين.
(يسقط ضوء على صالون، حيث نرى شيخة، ومعها عدد من
النساء والفتيات. الشيخة تدور حول ليلي، وتفحصها)
- الشيخة : بسم الله.. بسم الله، وحولتك بالله. هذا الحسن.. لا
عجب أن يطمع به الإنس والجن. بسم الله وقوة أوليائه..
جئنا أيها الجنِّي الفاجر، فتجنب الهلاك، وإخرج من هذا
الجسد الطاهر. (أمرأة الجلوقة) احصروه، وضيقوا صدره!
- الجميع : (الأداء يشبه أداء تلاميذ الكتائب) أعوذ بالله من الشيطان
الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم.
- الشيخة : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ.
الجلوقة : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ.
الشيخة : مَلِكِ النَّاسِ.
الجلوقة : مَلِكِ النَّاسِ.
الشيخة : إِلَهِ النَّاسِ.

الشيخوخة : إلى النَّاسِ.
 الشيخوخة : من شَرَّ الوُشُوسِ الخَنَّاسِ.
 الجلوة : من شَرَّ الوُشُوسِ الخَنَّاسِ.
 الشيخوخة : الذي يُوشِشُ في صُدُورِ النَّاسِ.
 الجلوة : الذي يُوشِشُ في صُدُورِ النَّاسِ.
 الشيخوخة : من الجِنَّةِ والنَّاسِ.
 الجلوة : من الجِنَّةِ والنَّاسِ.
 الشيخوخة : صَدَّقَ اللهُ العَظِيمِ.
 الجلوة : صَدَّقَ اللهُ العَظِيمِ.
 الشيخوخة : الآن.. طَهَّرُوا المَكَانَ، حَتَّى يَفْرَ الأَشْرَارُ مِنَ الإنْسِ والجَانِ.
 (تبدأ المريدات بإشعال البخور في الجمار، وكذلك أعواد الطيب من كافور ومسك وعبير وسوى ذلك من اللواد، التي تصدر دخاناً ملوناً يُعطر ويهيج معاً. يدرن بالجمار فيما يشبه

الشيخوخة : الآن.. طَهَّرُوا المَكَانَ، حَتَّى يَفْرَ الأَشْرَارُ مِنَ الإنْسِ والجَانِ.
 (تبدأ المريدات بإشعال البخور في الجمار، وكذلك أعواد الطيب من كافور ومسك وعبير وسوى ذلك من اللواد، التي تصدر دخاناً ملوناً يُعطر ويهيج معاً. يدرن بالجمار فيما يشبه

الشيخوخة : الآن.. طَهَّرُوا المَكَانَ، حَتَّى يَفْرَ الأَشْرَارُ مِنَ الإنْسِ والجَانِ.
 (تبدأ المريدات بإشعال البخور في الجمار، وكذلك أعواد الطيب من كافور ومسك وعبير وسوى ذلك من اللواد، التي تصدر دخاناً ملوناً يُعطر ويهيج معاً. يدرن بالجمار فيما يشبه

الشيخوخة : الآن.. طَهَّرُوا المَكَانَ، حَتَّى يَفْرَ الأَشْرَارُ مِنَ الإنْسِ والجَانِ.
 (تبدأ المريدات بإشعال البخور في الجمار، وكذلك أعواد الطيب من كافور ومسك وعبير وسوى ذلك من اللواد، التي تصدر دخاناً ملوناً يُعطر ويهيج معاً. يدرن بالجمار فيما يشبه

الشيخوخة : الآن.. طَهَّرُوا المَكَانَ، حَتَّى يَفْرَ الأَشْرَارُ مِنَ الإنْسِ والجَانِ.
 (تبدأ المريدات بإشعال البخور في الجمار، وكذلك أعواد الطيب من كافور ومسك وعبير وسوى ذلك من اللواد، التي تصدر دخاناً ملوناً يُعطر ويهيج معاً. يدرن بالجمار فيما يشبه

الشيخوخة : الآن.. طَهَّرُوا المَكَانَ، حَتَّى يَفْرَ الأَشْرَارُ مِنَ الإنْسِ والجَانِ.
 (تبدأ المريدات بإشعال البخور في الجمار، وكذلك أعواد الطيب من كافور ومسك وعبير وسوى ذلك من اللواد، التي تصدر دخاناً ملوناً يُعطر ويهيج معاً. يدرن بالجمار فيما يشبه

فصل الحكاية النافلة

الحفيد : بين أهل أمي، كان خالي سرحان يسبب لي ما يشبه الحكمة. فأنا أنفر من الحوار معه، وهو في الوقت نفسه، لا يبدو في هذه الحكاية التي أتابعها، إلا مثل ظل غامض يصعب تحديده. الآن.. هو مَلِك اللذة في المدينة. لديه سلسلة من البيوت السرية، والأوكار، ونوادي القمار، والشقق الخصوصية، وما لا يعرفه إلا رجاله وسماستره. وهذا التحول الكبير، هو يعد ذاته رواية مستقلة. ولكنها في الواقع رواية نافلة، ولا نتمدنا إلا بمعلومات هزيلة.

« توثقت الصلة بين الخال والبورى.

(بقعة ضوء على البورى وسرحان)

سرحان : البضاعة جاهزة يا معلم.
البورى : أتأكد أنك سَلِمْتَ من الرقيب والراصد؟
سرحان : من الجنوب إلى بيروت، لم يصرنا إلا الليل وبضع نجوم نائمة.
البورى : يشهد الله إن مهارتك وجرائك تجاوزتا كل تصوراتي. منذ الآن أنت شريك يعتز المرء بشراكته.
سرحان : أما حان الوقت كي نضرب الضربة الكبرى في مصر؟
البورى : نعم.. وجدت تديراً بعجبك. ولكن قبل ذلك ألا نستطيع

أن تزيح لنا أحاك من المرفأ؟ يوم السفر ينبغي أن يكون المرفأ أرضاً مفتوحة لنا.
سرحان : إذا كان أخي هو العقبة، فسأزيحه.
البورى : أتستطيع؟
سرحان : نعم. ما أخبار سونيا؟
البورى : هل اشتقت إليها؟ سأنت عنك، وستجدها حيث تعمل.

« كان خالي غامض الارتباطات.

(بقعة ضوء على قائد في الدرك وسرحان)

سرحان : حان الوقت كي تنظف لنا المرفأ.
قائد الدرك : ماذا تطلب؟
سرحان : أولاً أريد أن تنقل أخي إلى الإدارة.
قائد الدرك : حقاً هذا بغل، وعناده مزعج. لا يعرف كيف يستفيد، ولا يترك الآخرين يستفيدون. صدع رأسي بالتقارير وكشوف الفساد.
سرحان : إذن.. خير له ولنا أن تضعه تحت رقابتك.
قائد الدرك : طيب.. سأقبل.
سرحان : وبيوم الإبحار، أرجو أن تعيد تلك العيون الفارغة، والألسنة الطويلة التي تعرفها. أنت تعلم.. هذه الصمقة مصرية يا جودت بك.
قائد الدرك : لكن ما الذي يجعلني أثق بك؟
سرحان : الجواب في دخيلة نفسك. والتكرار لا يليق بالرجال، ولا يخلو من الأخطار.
قائد الدرك : غلبتني.. فيك سحر يا سرحان. فيك شيء شيطاني لا يقاوم.

سرحان : (يجئ إلى جوارها) اسمعي يا سونيا. أنا لست مديناً بتقديم شهادة أمام كائن في هذه الدنيا. والوحيد الذي أريد أن أبرز نفسي أمامه هو أنت. (يُخرج من جيبه سلسلاً ذهبياً، عُلقَت في طرفه صفيحة ذهبية بيضوية، نُحِطَّت عليها كلمة الله) أتذكرين.. اسم الله وهذا السلسال، الذي كان لا ينزعه من رقبته أبداً.

سونيا : نعم.. هذا هو. دعني أسأله، وأشم رائحته.

سرحان : انتظري.. واسمعي جيداً. أقسم لك يا سونيا إنني بريء من دم البوري، وإن مصيري ما كان ليفترق عن مصيره، لولا بقية من الحظ. (لحظة صمت.. ينهض، يناولها السلسال) يمكنك أن تحفظي بالسلسال إذا شئت.

سونيا : أبنيني أن أصدقك! أحسُّ أنني وحيدة. لم يعد لدي رجلٌ يحميني، ويريح ذراعاه الثقيلة على كتفي.

سرحان : جئت كي أودعك قسماً، وأعهد بحمايتك كما كان يفعل الحوت.

سونيا : لا أدري.. إن الشكوك تعمُر القلب.

سرحان : ليس لدي إلا اليمين الذي لم أحلفه إلا لك. وحين يصفو قلبك ابحتي عني.

(يهم بالخروج، فتمسكه)

سونيا : انتظر.. لا شك أنني امرأة بائسة وحمقاء. تعال.. تعال.. أريد أن نتحدث. ماذا تشرب؟

سرحان : (يشتم، ويجلس) لا شيء..

(تنطق الإضاءة فوق البقعة)

(ينطق الضوء فوق البقعة)

الحفيد : وسافر سرحان والبوري تلك السفرة الكبرى. انقطعت أخبارهما فترة طويلة، واثارت حولهما شائعات كثيرة. مرة قيل إنهما سجنان في لبنان مصر. ومرة قيل إنهما قُتلا في ميناء أتبنا. ولكن.. بعد اللغظ والشائعات، عاد الحال فظهر في بيروت سالماً معافى. وأما البوري فقد اختفى في ظروف غامضة، لم يكشف عنها إنسان حتى الآن.

« وسرحان ما يزال منشعباً ببراءته حتى اليوم.

(بقعة ضوء تسقط على سونيا وسرحان)

سونيا : أنت! فعلاً الذين استحووا ماتوا!

سرحان : لا أستطيع أن أؤمنك مهما قلت.

سونيا : ولماذا لا تلومني! أما كان ينبغي أن أستقبلك بالفقش والرقص!

سرحان : لبتك تهدين قليلاً.

سونيا : فقدتُ خير رجل عرفته، وتطلب مني أن أهدأ! (وهي تبكي)

آه يا حوتي.. يا سندي وأمني.. هل عرفت قبل أن تموت، أيتها

أفقي كنت تصاحب! هل تحشرت! هل حملت هذه المرارة،

وأنت ترحل إلى الموت! في أي أرض قتلته؟ وفي أي فلاة

دفنته؟

سرحان : سامحك الله.. كان صديقي ومعلمي، وفجيعتي بغيابه لا

تقل عن فجيعتك.

سونيا : ولكن هو الذي مات، وأنت الذي نجوت، وفي ظروف لم

يكشف غموضها أحد.

سلمى : نعم.. إنك أحياناً تشبهني. وهذا الاتفاق ينبغي أن يظل سرّاً، لا يطلع عليه مخلوق.
 سرحان : لك ما تشائين.
 (تنظفي الإضاءة فوق البقعة.)
 الخفيد : وازدهرت أعمال الملكين. لم تكن تنمو نمواً عادياً. بل كانت تزدهر كالانفجارات المفاجئة. وهنا يمكن أن يذكر المرء، وبصورة هامشية، أن فضل الحالة في هذا الزدهار كان شيئاً، وربما فاق اجتهاد الحال ومواهبه.

« وأزلا خالتي سلمى شريكة..

(بقعة ضوء سرحان وسلمى)
 سرحان : لم أشتق لأحد سواك يا أخت.
 سلمى : وأنت أيضاً لم تغب عن البال كثيراً.
 سرحان : ألم تعودني إلى البيت بعد تلك الليلة؟
 سلمى : ألم نتهاهد أن يكون المخرج تلك الليلة قطيعة بلا رجعة! لا.. غيرت حياتي تماماً. محوت اسم أهلي، وانتسبت إلى زوجي، وبذلت الوسط الذي تعيش فيه.
 سرحان : علمت أن الوسط الذي تعيشين فيه، يكاد يكون فرسياً.
 سلمى : هم نخبة من الفرنسيين، وبعض الظرفاء من الأعيان والساسة.
 سرحان : هذا هو الوسط الذي أحتاجه. نحن يا أخت متشابهان. وأعتقد أننا نستطيع إذا تعاوننا، أن نغدو ملكين، يتلاعبان في الخفاء بالمصائر والفروات.
 سلمى : ماذا تعرض علي؟
 سرحان : أن نكون شريكين في تجارة اللذة.
 سلمى : أف.. تجارة ألم تجد كلمة أكثر سوقية منها؟
 سرحان : ماذا تقترحين؟
 سلمى : ابتعد عن التجارة، وما يذكّر ببيع وشراء اللحم. سئمه مثلاً..
 سرحان : هيكل اللذة، مع شمائر مبتكرة لأهل الذوق والتجربة.
 سلمى : كنت أعلم أنك الشريك الذي أحتاجه.
 سلمى : وهل حددت نصيباً لهذا الشرك؟
 سرحان : لا أعتقد أننا سنختلف. إن شئت نسبة، أو حصة..
 سلمى : (تقاطعه باشمئزاز) هل عدنا إلى سوقية التجارة والتجار.
 سلمى : قلت.. سنكون ملكين. وقد أعجبتني التعبير، وأثار حماسي.
 سلمى : سأكون الملكة، وستكون الملك.
 سرحان : حقاً يا أخت.. حقاً.. إننا متشابهان.

(١٦)

فصل العربي والدهشة

(في بيت حبيب الشمالي. سناء والمرأة، ومن الفونوغراف
تتبع أغنية ماري جيران وأصل الفرام نظرة)

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

: أليست تلك هي السعادة؟

: سأكذب لو قلت إنني لست سعيدة. لم أتخيل أبداً، أن
الإنسان يمكن أن يذوق مثل هذه المشاعر والمتع.

: نعم.. إنه يعرف كيف يجعلنا نفور، ونفيض، ثم تتلاشى في
غيبوبة النشوة.

: كالمعلم الماهر، أو كالمساحر يوقظ الجسد خلية خلية، وعضواً
عضواً، فأحس أي أتعبد، وأغدو حشداً من الرغبات
والآهات. أه.. يكفي أن أستعيد اللحظة في خاطري، حتى
يقشع ظهري.

: نعم.. إن ذلك مدهش، ولعلنا كنا نستحقه منذ الصبا.

: ماذا هناك إذن؟ أشعر أنك تخفين كلاماً تحت لسانك!

: لا.. لا تظني أنني نادمة. وما فعلناه كان هو الخيار الصائب.

: ما الذي يقلقك إذن؟

: هو شيء غامض، لا أعرف كيف أصفه! إن اندفاعه، أو
شغفه، أو نهمه.. نعم.. إن نهمه هو الذي يقلقني،
ويخيفني.

: وهل يخلو الحب الحقيقي، من بعض النهم!

: معلق حق.. ولكن أحياناً أحس أن المسألة تكاد تتجاوز
الحب. أخافتني الشراهة التي يبش بها الماضي، كي

يستملكه، ويضيفه إلى الجميمات الأخرى التي يجردك
منها.

: الله.. الله.. هل بدأنا نتبادل الأدوار؟

: لعل من المفيد أن تظل واحدة منا مبصرة وحذرة. ماذا
تشعرين وأنت ترينه ينتزع ذاكرتك لينة لينة.

: غالباً ما يبدو الأمر لعباً وتسلياً.

: أهدأ ما أحسست به حين رويت له، أن أمك كوت فخذيك

الصغيرين بالنار، حتى تكفي عن التبول في الفراش؟ ألم

تشعري أن خلية حية انتزعت من نسيجها، وظل مكانها
أجوف.

: لمأ رويت له الحادثة، انهمر على فخذك يفتح عليهما،
ويقبلهما. وكانت شفتا. وأفغامه تدغدغي، وتدفعني إلى
الضحك.

: وحين أخبرته عن مشاهد الحمامات وأسراها.. وعن التعري
في الفراش.. وصرير السرير تحت ثقل الأب والأم..

: نعم.. أحياناً كنت أشعر بالمرح.. وأحاول التلصص من

إلحاحه.. ولكنه كان يعرف دائماً، كيف يغالب حرجي،
ويتعري بيض من التعاطف والدفء.

: فتندفعين كالمسحورة، كي تبشبي أدق التفاصيل، وأبعد

الأسرار، وتخبره بها. حتى تلك الليلة الرهبة، التي لم

يعرف ما جرى فيها سوانا.. تلك الليلة، التي دفعتك فيها

غواية مجنونة، كي تلغقي بلسانك بلورة الفنديل الأسطواني،

التي احمرت من شدة اللهب.. حكيبت تفاصيلها دون

ارتباك أو حجل!.. وجنون الليلة التي خطف فيها أخوك

عروسه، لم تتركي منه تضيلاً إلا تشعرين بعد هذه

الاعترافات، أنك تبوحين، وتصبحين هشة وجوفاء؟

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

السيئة؟ أتعلمين.. إن لعبة الذاكرة التي تتسلى بها كل ليلة، خفقت تغل الماضي، وساعدتني على تجاوز الألم، الذي خلفه فراق عائلتي.

المرأة : لا أريد أن أحبط سعادتك. ولكن سأظل بقطعة وحنونة.
سناء : آه يا نفسي.. دعيك من الحذر، واسترخي في هذا الجري الدافئ والمدهش.
(بعد قليل، يدخل حبيب معكرو الملامح، فتهض سناء خفيفة، وتستقبله معانقة)

سناء : إنك تأتي مكرراً.
حبيب : أنلومتي إذا اشتقت إليك؟
سناء : أرى الهموم تغلب الشوق في وجهك.

حبيب : لا شيء.. إنني أفكر ببناء سور حول البيت. سور متين، وأعله مغطين بالمسامير وكسرات الزجاج. عشا قليل سيأتي حنا المعماري كي يعاين، ويأخذ القياسات.

سناء : (يشحب وجهها) أخبريني.. ما الذي جعلك تتخذ هذا القرار؟
حبيب : كان ينبغي أن أبني السور منذ سكنا هذا البيت. (وهو يضحكها) ولكن لهفة الحب وضرورات العمل، جعلتني أماطل، وأزجل.

سناء : واليوم.. ما الذي دفعك للتسجيل بيننا؟
حبيب : (مراوغاً) لا شيء.. لم يكن لدي عمل كثير.
سناء : بيننا اتفاق على الصراحة، وعدم المراوغة.
حبيب : طيب.. قبل لي إن رجلاً غريباً مرّ بالسوق، وكان يسأل عن بيتي.

سناء : هل تعتقد أن الرجل واحد من أهلي؟
حبيب : أظن أن الرجل يريدني، وأن الحادثة عبارة. وعلى كل هامو المعلم حنا. وحين نهي السور لن تبقى هناك مفاجآت أو

سناء : أشعر أن وحدتي تتلاشى، وأني خفيفة كريشة. ومع هذا لم أفهم حتى الآن ما الذي يضايقك، أو يخيفك.

المرأة : (بعطف) إنه يتزعج داخلك، ويستحوذ عليك. أحشى ألا يبقى لك قوام، وألا تبقى لك دخيلة أو سريرة.

سناء : ألم تخبريني مرة، أن الحب الفعلي، هو أن يذوب العاشقان في عنان، يتعلمن فيه أن يميز الواحد نفسه عن الآخر.

المرأة : نعم.. في لحظة من اللحظات.. أو في وقت من الأوقات.. ولكن نهمه غريب، ويتجاوز العناق. إنه يستولي ببراعة ودأب على كل الحميميات، التي تجعل المرء يحس أن له حياته التي تخصه، وأنه يستطيع أن يقول وأنا. بدأ بالذاكرة، وانتقل إلى الأفكار، والعادات الصغيرة. يرافقك حين تستحمين. ويدخل معك إلى المرحاض، كي يراك، ويشم روائحك. وحتى حين تأتيك الدورة، يشاطرك انشغالك، ويذل الحرق معك. لقد غدوت مجرد مسد، لا يزيّن عريه حياء أو خفاء.. وأحياناً أحس أن نهمته لن تشبع قبل أن يلتهمك، ويمتصك في كيانه.

سناء : لا أشعر بالخوف. وهو أجلسك لم تقلقني، بل جعلت الرعشة تتسلق ظهري. ليكن.. لن أحجل من عري. هذا العري الذي حلمت به طوال عمري. عري مدهش ولذيذ، شبيه بالاسترخاء والنسيان وبداية الحياة. ربما نزحتي من الداخل، ولكن جعلني أشعر أن كل ما في، حتى جلوسي في المرحاض، مدهش وجميل. ليس في ما أستحي منه، ليس في ما أواريه. إنني خفيفة كالريشة.

المرأة : وهل ستظلين تلك الريشة الخفيفة، إذا ما تحول ذلك النهم إلى سجن، وغيره خائفة؟

سناء : لماذا تريدني أن نبك سعادة اليوم، بالطعير، والاضراضات

مخاطر.

(يظهر المعلم حنا، ومعه عامل يحمل عدّة القياس. يقبل حبيب سناء على رأسها، ويهيم بالخروج لاستقبال العماري)

: (بحزم) لا أريد أن تنهي هذا السور.

: لماذا؟ إنه احتياط لا يضر.

: لن نحول البيت إلى سجن. ولم أتبعك لكي أنتقل من سجن إلى سجن.

: إنه مجرد سور.

: وأنا لا أريد هذا السور. سيظل البيت مفتوحاً على الوادي والغابة والبحر.

: (متضامناً) كما تشائين.. سأطلب من المعلم حنا أن يؤجل المشروع بعض الوقت.

: (بهذبة) أخبره أننا ألغينا الفكرة، وأنتا لا نحتاج هذا السور.

: طيب.. دعيني أتصرف.

(يخرج..)

وتختفي الإضاءة.)

(١٧)

فصل التسيان والبدء من جديد

(يظهر عبد القادر وابنه الدركي عدنان)

عدنان : تأكد أنني لم أهمل وعدتي، وأني لم أتوقف عن البحث عنها.

عبد القادر : قوّاك الله يا بني. الأيام تداوي، وأنا كدت أنساها.

عدنان : لا أعتقد أن أحداً منا يستطيع أن ينسى تلك القطاعة. نيشث بيروت كلها، ولم أجد لها أثراً. ولكن أعدك أنني لن أوقف هذه المطاردة، حتى أمسك بها.

عبد القادر : ألا تذكر.. يوم رحلت، تركت لنا تقول.. اعتبروني ميتة. ولعل هذا هو الصواب، أن نعدّها بين الأموات، وأن نواصل حياتنا. إن عجزاً مثلي لا يستطيع أن يواصل حياته، دون امرأة تعني به، وتسند.

عدنان : ماذا تنوي؟

عبد القادر : وجد لي أقبالي امرأة مناسبة، تداوي جرحي، وتجمل آخرتي. ولكنني كنت أؤجل، وأترت، وراجياً أن تجد أختك ليلى نصيبها.

عدنان : ربما كان نصيب ليلى جاهزاً.

عبد القادر : (بفرح ودهشة) ومن هو؟

عدنان : إنه صديقي.. شامل السيروان.

عبد القادر : هذا شاب لا يُهاب. ما الذي جعلك تظن أنه يريدنا؟ هل أخبرك ولو تلميحاً، أنه يريدنا؟

عدنان : لا تهم التفاصيل. أعتقد أن الشاب يريدنا. ولولا التهيب

عدنان : إننا من عالمين مختلفين. ولكن من أجل شاطرلك.. سأحاول.
 عبد القادر : وعلم صديقك أن يضرب الحديد وهو حام. دعه يتغلب على
 التردد، ويتقنم.
 عدنان : أما بالنسبة لأمي.. فإنك تقترح أن أنساها.
 عبد القادر : أف.. ما أبرد دمك، وما أشد عنادك! نعم.. إنساها، والتفت
 لبناء مستقبلك.
 (تمخضي الإضاءة.)

لتقدّم، وطلب يدها.
 عبد القادر : أهو يعرف عيها؟
 عدنان : طبعاً إنه يعرف عئها، وما تعانيه.
 عبد القادر : إذن.. ماذا ينتظر؟ دعه يتقدم، كي نستر البنت، ونضمن
 مستقبلها. وإذا كان عسر الحال، هو الذي يجعله يتردد، فإني
 مستعد أن أسط له يدي.
 عدنان : أترهد أن تقدم له رشوة!
 عبد القادر : لا تفلسف يا عدنان.. من يتحدث عن الرشوة! قصدت أن
 أقدم له مبلغاً، يرتب به شؤونه، كي يتهيأ للخطوبة والزواج.
 عدنان : وأنت يا أمي.. هل ستزوج قبل ليلى أم بعدها؟
 عبد القادر : إذا تسرت أمور ليلى، فسأنتظرها حتى تتزوج. وأنت.. لماذا
 لا تبحث عن نصيبك، وتكمل نصف دينك؟ ألا تعلم أن
 الزواج شئ، وأن بعض الصحابة تزوج، وهو على فراش
 الموت، لأنه خشي أن يلقي ربه، وهو أعزب.
 عدنان : أريد أن أسألك يا أمي.. إذا وقفتي الله، وعثرت على أمي،
 فماذا تطلب مني أن أفعل بها؟
 عبد القادر : ماتت أئك بالنسبة لي يا عدنان. وأنصحك أن تترك هذا
 الأمر، وأن تتشغل بإصلاح أحوالك، وبناء مستقبلك. أنعلم
 أنني اشتقت لأخيك؟ طبعاً لولا نجاحه، لما عفرت له، ولما
 تحملت الجرح الذي سببه جحوده.
 عدنان : لم يكن أخي واحداً منا في يوم من الأيام.
 عبد القادر : بل هو منا، ولعله الأبرع بيننا.
 عدنان : أتسمي ما يفعله أخي براءة؟
 عبد القادر : أليست براءة أن ينتزع شاب صغير من برائن الحياة، وفي فترة
 قصيرة، هذه الثروة وهذا الجاه. هذا أخوك يا عدنان، وأتمنى
 أن تصلح أمورك معه، وأن توثق صلته به.

(٨)

فصل المكاشفة والمهمة الخفية

(في الصالون ليلي وشامل.)

شامل : أين عدنان؟

(تؤدي يديها ورأسها بضع إشارات، تجيب بأنه يأخذ قبولة قسرة. يرين صمت. يبدو عليهما الارتباك، وهما يتخالسان النظر)

شامل

: أتمنى ألا تظني، أنني أستغل الصدقة التي جمعتها على الفرد. فأنا أروي مفاتيح عدنان اليوم بالذات. ولكن ربما كان ضرورياً أن تعرفي عمق الحب، الذي يملأ جوانحي.

(تزوج عيناها، ويبدو الاضطراب على وجهها، لا يفهم شامل ما يحدث، فيتابع مندفعاً)

لا أحسن تزويق الكلام، ولا أعتقد أن لدي الموهبة للتعبير عن مشاعري بكلمات حلوة، تهتز لها أوتار القلب. في داخلي فيض من المشاعر الغنية والمدهشة، ولكن الدركي الذي ترى على الحشونة، لا يعرف كيف يجد التعبير الذي يناسب مشاعره. ولذا سأقول كلمات بسيطة، ودون تزويق، إنني أحبك يا ليلي، وأريد أن تقاسمني حياتي، حلوها ومزجها.

(تزداد أمارات الاضطراب على وجه ليلي. تتناول من ركن الصالون سيورة متوسطة الحجم، مع طيبشور ومحافة. يبدو أنها تستخدم السيورة للتفاهم مع الآخرين. تنصها في مواجهة الجمهور)

ليلي : (تكتب على السيورة) إن الحب يخيفني، ويشير اضطرابي.

شامل

: لماذا؟ وكيف يمكن أن يكون الحب مخيفاً؟

ليلي : (تحمي العبارة الأولى، وتكتب) لا أدري.. ذلك يصعب شرحه.

شامل

: إذا كان كلامك ينطوي على جواب، فأرجو أن تكوني أوضح.

ليلي

: (تحمي العبارة السابقة، وتكتب) هل أنت متأكد أنك تريدني، وأنتك ستتحمل العيش معي؟

شامل

: أتسأليني إن كنت أريدك! لا أستطيع أن أمتنح رغبتني في العيش معك أكثر من ذلك. لولا حبك، لبددت أيامي في الغوضى والمرارة.

ليلي

: (تحمي العبارة السابقة، وتكتب) ألا يُحتمل أن تكون الشفقة بعض دوافعك؟

شامل

: لا.. لا تتحدثني عن الشفقة. أحبيتك قبل المصاب، ولم يفتر حبي بعده. بل على العكس، شعرت أننا ستزداد توادداً، حين ستقاسم المصائب والأرزاء.

ليلي

: (تحمي العبارة السابقة، وتكتب) لم يُخطئني التقدير. كنت دائماً أجدك شهماً وكريماً.

شامل

: دعينا من المراوغة.. ما يملئني علي إجاباتي هو الحب، لا الشهامة. وأعتقد أن من حقي عليك، أن توضحني شعورك نحوي. هل تبادليني بعض حبي ومشاعري؟

ليلي

: (تكتب، وهي ترتعش) إن الحب يخيفني. (يزداد ارتعاشها) هذا صعب.. هذا صعب..

شامل

: وما الصعب فيه؟ ماذا تخفين؟ هل يعني هذا أنك تجيبين بالرفض؟

ليلي

: (تكتب، وهي ترتعش) لا.. لا.. أريدك. ولكن الخوف

- يشلتي. شامل
 : ترهيتيني! ولكن الخوف بشلتك. لماذا الخوف؟ وما هي هذه
 الأسرار الغريبة، التي تباعد بيننا؟ شامل
 : (عفي العبارة السابقة، وتكتب) الآن.. لا أستطيع أن أوضح
 لك شيئاً. أتكم السر؟ شامل
 : أدفع حياتي، ولا أخون سرّاً أودعيه لدي. شامل
 : (عفي العبارة السابقة، وتكتب) هناك مهمة ينبغي أن
 تنجزها، كي ينجح ارتباطنا، وتتبدد هذه الأسرار التي تلتقنا.
 (يظهر عدنان في عمق الصالون، حين يراهما يتراجع،
 ويخفي وراء عمود. يراقبهما جلسة، ويسترق السمع)
 : سأنفذ أية مهمة تأمرين بها. شامل
 : (عفي العبارة السابقة، وتكتب) ينبغي أن تنقذها وحده، وألا
 يطلع على أمرك غريب أو قريب. شامل
 : لا تخافي.. سأنفذها وحدي. ولن يطلع مخلوق على سرّي.
 : (عفي العبارة السابقة، وتكتب) سنذهب إلى أمي، وتقول
 لها.. إن ابنتك ليلى، مازالت تعاني من انعقاد لسانها، فمتى
 تحرّرها من الرعب، وتكفين عقدة لسانها؟ احفظها بسرعة،
 كي أمسيها. شامل
 : (مردداً) سنذهب إلى أمي، وتقول لها.. إن ابنتك ليلى،
 مازالت تعاني من انعقاد لسانها، فمتى تحرّرها من الرعب،
 وتكفين عقدة لسانها؟ ليلى
 : (عفي العبارة السابقة، وتكتب) وقل لها.. إن ليلى مازالت
 تحبك. وإن لم تصلحي أمرها، فسيكون زواجها محنة. شامل
 : (يكور) وقل لها.. إن ليلى مازالت تحبك. وإن لم تصلحي
 أمرها، فسيكون زواجها محنة. شامل
 : (وهي عفي بسرعة، ثم تكتب) هل حفظت الرسالة؟ ليلى
- نقشتها في ذاكرتي. ولم يبقَ إلا أن تخبريني أين أجدها؟ شامل
 : (عفي العبارة السابقة، وتكتب) بيت حبيب الشمالي، في
 أعلى جويته. ليلى
 : بيت حبيب الشمالي، في أعلى... شامل
 : (تكتب بعنف) اخفض صوتك!
 : سأخفضه.. سأخفضه.. بيت حبيب الشمالي، في أعلى جويته. شامل
 : (يخرج عدنان من مكانه، ويقترّب منهما)
 : هل جئت منذ زمن طويل؟ لماذا لم تخبريني يا ليلى؟
 (تتهكم ليلى في تنظيف السبورة، ويكادان لا يتجمعان في
 إخفاء ارتباطهما)
 : لم أرغب أن تفسد قيلولتك. شامل
 : استرخيت قليلاً، ولم أتم. قل لي كيف وجدت تبادل
 الحديث عبر السبورة؟ عدنان
 : (وليلى تخفي وجهها يديها حياةً) كان ممثماً ومشوقاً. شامل
 : وهل تفاهمتما حقاً؟ عدنان
 : أعتقد أننا تفاهمتا. ألم تفاهم يا ليلى؟ شامل
 : (تفعل ليلى طرفها، وتبتسم)
 : ألا نستحق بعد هذا التفاهم، فنجان قهورة؟ عدنان
 : (تومي ليلى برأسها موافقة، وتخرج)
 : ما أطيب قلبها! أين سنسهر الليلة؟ عدنان
 : عمرك أطول من عمري. جئت كي أرتب معك سهرة اليوم.
 هناك قضية هامة، أريد أن أفاطحك بها. شامل
 : وهناك نأ سار، أريد أن أرّفك لك. عدنان
 : إذن ستكون سيرتنا عامرة. شامل
 : ومصيرية أيضاً! عدنان
 : (تخفي الإضاءة.)

(١٩)

فصل الأخويات في متاهة الأم

(في مقر سرحان، وهو مزيج من المكعب والمخدع، أبيق دون إسراف أو بلذخ، وتظهر عليه لمسات من ذوق شخصي وخاص. سرحان وعدنان)

- سرحان : (بتعالٍ سخيفٍ) أهلاً يا عدنان! مرّ دهر لم نلتق فيه.
عدنان : نحن لم نغيّر، ولم نغيّر، ولو شئت لالتقينا. أما أنت فقد أرهقني البحث والسؤال، حتى وجدت طريقي إليك.
سرحان : أعلمي يا عدنان، تقتضي الحذر. وأن تكون لي مكاتب عدّة، كل منها مختلف في موقعه وطابعه.
عدنان : أعرف أن أعمالك واسعة، وأنت حققت أخيراً ما كنت تطمح إليه.
سرحان : لا تتروّك المظاهر. ما زلت في البداية، وعلي أن أنجز الكثير، قبل أن يرضى طموحي.
عدنان : لا أستطيع إلا أن أتمنى لك التوفيق. ولولا أن لذي موضوعاً ملخاً، ويخصّنا جميعاً، لما أزعجتك، وتطلّفت على وفك.
سرحان : لا تكن متحفّظاً إلى هذا الحد. نحن في النهاية أخوة.
عدنان : أتشعر فعلاً أن الدّم يحسّ إلى الدّم، وأن روابطنا العميقة لم تنقطع.
سرحان : لا أحبّ تهافت العواطف، ومبالغاتها الريفية. نحن عائلة واحدة، ولكن لكل منا اهتمامات مختلفة. ما هو الموضوع الذي تجده ملخاً، ويخصّنا جميعاً؟

٩٤

- عدنان : اعلم يا أخي أنني، وبعد طول بحث رتيقّب، عرفت بالصدفة أين تُقيم أُنثا.
سرحان : أما زلت تدور في متاهات تلك الحكاية، التي أملاها الزمن؟
عدنان : هذه أُنثا.. والعار لا يُليه الزمن.
سرحان : شعارات القضايات وأهل البسطة. كانت أُنثا، واختارت أن ترحل عنا. لم تكن صغاراً نحتاج رعايتها، ولم تكن عبدة يتبغي ودعها وتأديها.
عدنان : ماذا تقول يا سرحان؟ الأم هي العرض، وهي سمعة البيت. ومهما أخفيت الأمر، فإني أحسّ منذ رحيلها، وكأنني مريض بالجدام.
سرحان : وماذا تنوي أن تفعل، كي تبرأ من الجدّام؟
عدنان : جيت أتشاور معك، كي تتخذ القرار سوية.
سرحان : أتريدنا أن نضع خطة للذبح؟
عدنان : أريد أن تفعل شيئاً، نسترد به سمعنا وكرامتنا.
سرحان : اصبر إلي يا عدنان! الشيء الذي يحفظ سمعنا وكرامتنا فعلاً، هو أن ننسأها. وأن لا نوقظ الحكاية بالدّم والنمائم.
عدنان : أهذا رأيك النهائي؟
سرحان : طبعاً.. إني أعمق منك تجربة، يا عدنان. وما نصحتك به، هو الرأي الواقعي والسليم. أتعلم.. مرة حلمت أنك تتخلى عن وسواس الاستقامة والطهر والحشية، وأنت تحمل معي، وتكون ساعدي الأيمن.. ولو كنت عاقلاً، لفكرت جدياً في العرض، الذي يقدمه أخوك.
عدنان : أعمالك تحتاج إلي طيبة أخرى من الرجال. (وهو يهيم بالانصراف) على كل.. أشكر لك عرضك.
سرحان : أتمنى ألا تنقطع بيننا الزيارات. قد تمرّ عليك فترات صعبة، ووقتها لن تجد العلاج الشافي إلا عندي.

٩٥

(٢٠)

فصل الحنات وفك عقدة اللسان

عدنان : (يرقف، ويلتفت) إنك تضحكني.
 سرحان : لا أحد يعلم جوعك إلى الحنان مثلي. وفي حالتك، لا أحد
 لديه ما يشبع هذا الحنان غيري.
 (يخرج عدنان)
 سرحان : ما أطيبه، وما أغياه! أنا ملك اللذة، يريدني أن أجرد حملة
 محاربة العار وغسله!

(غرفة في أحد فنادق شتورة)

ليلي

: لم يكن لي عرس. لا ثوب أبيض، ولا جهاز عروس، ولا
 حفلة عرس. أعطاني أبي بعض المال، وتمنّى لي التوفيق. لم
 يحضر من إخوتي أحد إلا عدنان. ولم يهتم بزواجي قريب
 أو صديق سواه. وحين خرجت من البيت، وليس معي إلا
 حقيبة ثيابي، يحملها زوجي، فرطت الدموع من عيني،
 وكأنها واجب ينبغي على الفتاة أن تؤدّه، حين تغادر بيت
 أهلها. لا.. لم أكن حزينة. وحين ركبت السيارة، وبدأنا
 نخرج من بيروت، كانت السماء المتألقة بالشروق تبدو
 وكأنها تزغرد لنا، وترش علينا الأماني والوعود. وفي
 أحشائي، كنت أحس أن نبعاً خفياً من الفرح والأمل، بدأ
 ينزّ ثم يسيل، ثم يتدفق، فيغمر داخلي كله. وكان شامل
 إلى جوارري، قوياً كصخرة، حنوناً كسمة. وفي شتورة قرّر
 أن تقضي ليلتنا في أحد الفنادق. وحين غدونا في الغرفة،
 ونظرت إلى السرير العريض وبياضاته النظيفة، امتلأت
 أعطاني بالهياج والتلق.

شامل

: ينبغي أن أخبرك، أن دمشق أقل بهجة من بيروت. وفي هذه
 الفترة، يعيش الناس أياماً عصيبة. فبعد اندلاع الحرب العالمية
 ازداد ضغط الفرنسيين، وامتلأت المسجون بالشباب الوطنيين.
 لا أقول ذلك كي أخيفك، بل كي أجيبك الشعور بالغرابة أو

ولا تطلب إلا شيئاً من الحجة والغفران. ولا تخافي من الحب، لأنه التعمعة التي تجمل الإنسان، وتجعل الحياة فرحاً وأملأً يتجددان ولا يفضبان. والحب يا ليلي يحتاج إلى قلب معافي، وروح صافية. الخوف والمرارة والمخادعة، كلها أغذية فاسدة تسئم الروح، وتقتل براعم الحب. لا تعصري قلبك حين يخفق! ولا تحبسي أنفاسك حين يتدفق الدم لاهتافاً في عروقك! وحين تشعرين أن عاطفة كالتيار تدفلك نحو، الذي برقت له عينك، وخفق له فؤادك، اركبي التيار، ولا تخافي! انغمري في مياهه وأمواجه، ولا تخافي! أغمضي عينيك واسترخي! وفي لحظة، لا تعرفين متى حلت، ستجدين لسانك طليقاً، يتدافع بالكلمات، كي يعبر عن الشكر والفرح والامتلاء.

شملني خدر لذيذ، وشعرت أن جسدي عجيب تحخر وتقتش. هل كان يداعب شعري وقها! هل كانت يده نسمة لطيفة تمس شعري، من يذكر التفاصيل في مثل تلك اللحظة! كنت أغمض عيني، وأستسلم لهذا الفلق البهيج، الذي يخخر جسدي، ويتقش.

وختمت الأم قائلة.. أعيذ ابنتي، وهي أحي أحب أولادي إلى قلبي، أن الحب وحده هو الذي سيفك عقدة لسانها. وإن عرفتما كيف تغلبان على الخوف والحجل، وتجعلان تلك اللبلة عبداً، لا تنقطع مشاهدته ومسراته، فإنها ستجد لسانها، ورقة أنفائها. هذه الفتاة كثر، فساعدتها على أن تُبرز الخير الكثير، الذي لديها. وكي يؤو العين حافظ عليها. أما أنا.. فلو أردت أن أصف مشاعري يا لؤلؤتي.. ويا كزري، لما عرفت أية لفاظ أنقني!

الروحشة.
: ليلي ووسط الإهتياج والقلق، كنت أشعر على نحو غامض، أن الكلام يتشكل، كحبيبات الزبدة على رأس لساني. وكنت أريد أن أقول له، لن أشعر بالروحشة أو الغربة ما دام إلى جواربي.
(تقول أن تنطق، فلا تخرج إلا أصوات منفعة ومبجوعة).
: شامل (وهو يقترب منها، ويلامس وجهها برفق، فيبدر منها حركة حياة خفية) لا ترهقي نفسك، ودعي الحديث لي. تزدحم في صدري كلمات ومشاعر، ينبغي أن أفضي بها. أحس أنني حصلت على اللؤلؤة، التي يتنافس من أجلها القواصون. سيكون لك عرب يلق بك، وسأعوضك عن العذابات التي قاسيتها. لم أكن أعلم أنك تحمّلت الصدمة عن الجميع. ولم أكن أعلم، أن الأب كان يفتن في تذكيرك، تعريضاً عن شعوره بالعجز والإهانة.

: ليلي كان يتكلم بصوت حنون، وكنت أحس أن مفاصلي ترتخي، وأن حبيبات الزبدة ما زالت تتكون على أطراف لساني. وتمتيت لو أن لدي كالعرائس منامة لطيفة، أردتها، وأندس في الفراش العريض.

: شامل أريدك الآن أن تنسي القلق والخاوف وما فات، وأن تسترخي أمة ومطمئنة. لم تخطئي أمك حين قالت إنك أحلى ما أنجبت. كم كانت رقيقة وحنونة! تجمرت عنها من البكاء، حين علمت ما فعلته الصدمة بك. هل مللت سماع رسالتها؟ أم تريد أن أكررها أيضاً؟

: ليلي وأوماً له، وخبر لطيف يسري في جسدي، أن يكرر لي رسالة أمي ووصيتها.

: شامل تقول لك أمك يا ليلي.. إنها تمكك من كل عهد أو كتمان،

: وكانت حبيبات الزبدة تتكاثر على طرف لساني، ولكن لم تكن هناك ضرورة للكلام. ورغم الحياء والأرتباك، كنا ندخل في العيد منتقلين بين مشاهد ومباهج، خلال ليل طويل لا ينتهي.

(يخفت الضوء عليهما تدريجياً، وهما يتحاثان.

فترة هدوء طويلة نسبياً، يتخللها في بدايتها آهات يعقبا صمت قليل.

تتبع الإضاءة. يشرق يوم جديد. تستيقظ ليلي، وهي في حضن شامل. تلامس يده حذرة كل شيء.. جسدها، وجسد شامل، والفرش. توشى ملامحها نضارة الإرتواء، والماعات الفرح والاندهاش)

: وحين صحوت، شعرت أنني أشهد ولادتي الثانية، وتفحصت لساني في فمي، فوجدته خفيفاً وليناً. وجزيت فوراً أن أنادي.. شامل. في البداية كانت الحروف تتداخل أو تندغم، ولكن بعد قليل تحوّر اللسان من عثرته، واستردّ طلاقته. وحين استيقظ شامل، صاح مكبراً، ثم حملني وراح يرقص حافياً في الغرفة. في ذلك الصباح الذي لا يُنسى، تمددنا كثيراً، كأننا نعوض أيام الصمت الفائتة. ربّنا العرس سوياً، والبيت الذي سنسكنه، والحياة السعيدة التي سنعيشها. في ذلك الصباح أخبرني أيضاً أنه، رغم زيم ومهنته، هو واحد من الشباب الوطنيين، وأن نضالهم لن يتوقف حتى تنعم البلاد بالاستقلال.. أه.. ذلك الصباح.. كم هو بعيد وجميل ذلك الصباح!

(تختفي الإضاءة.)

فصل المواجهة والرعب

(تجلس سناء في ردهة البيت، وبين يديها جوب ترفوه. ومن الغرافون تبعث أغنية قديمة وشجية. الباب مفتوح، وكذلك النافذة. بعد قليل يدخل عدنان، ويتسمر عند الباب)

سناء

: (تباغتها المفاجأة. تتربّث لحظات حتى تستوعب الموقف. فجأة ترمي ما بيدها، وتقفر نحو عدنان، وتطوّق عنقه) حبيبي عدنان.. ابني عدنان.. أ.. أجمل أن أراك! (يتخلّص من عناقها بحركة جافة، ولكن رغم خشونته تستمر في اندفاعتها) لم تتغير كثيراً. ادخل.. ادخل.. (تجرّه برفتي) هذه الأريكة مريحة. اجلس ودعني أتأمّلك. ينبغي أن تقصّ عليّ أشياء كثيرة.

عدنان

: (يفغم، وهو يخلط النظر إليها بعينه العابستين والخجورتين) أمّاه..

سناء

: يا عين أمّك.. لن أسألك كيف وصلت إلى بيتي ومخايب. وكنت دائماً أحشى أن أواجه أحداً منكم، بعد رحيلي. ولكن حين رأيتك، فار الشوق، وتغلبت اللهفة على حذري ومخاوفي.

عدنان

: أمّاه..

(يقطع صوته، ويفرغ الدمع في عينيه)

سناء

: يا بنتي.. إنك تحرق فؤادي. أستطيع أن أرى، أنك تحمل همّاً يشوّه مساحة وجهك، وتحنني تحت ثقله هامتك. كنت

دائماً طيب القلب، تحمل هموم الآخرين، وتؤثرهم على نفسك. افتح صدرك، وأخبرني ما الذي يوجعك.

عدنان

: أتاه..

: يا روح أمك.. انفض همومك في حضني، ولا تخجل. هل يضايقك إلحاحي؟ طيب.. تصرف على راحتك، بينما أعد لك فجان القهوة السادة، الذي تحبه.

عدنان

: (يعاود أن يتماسك، ويقسو وجهه وصوته) لا.. لا أريد قهوتك.

سواء

: ألا تريد فهوة أمك يا عدنان؟ لن أعذب عليك، لو اعتبرت قهوتي مدبنة. ولكني أأم.. وهذه الهموم التي تحملها تجعل قلبي يتفطر.

(يبد عصبية يُخرج عدنان المسدس، الذي يحمله، من جرابه، ويضعه على فخذه)

عدنان

: (بصوت محشرج) أتاه..

سواء

: لماذا لا تتكلم؟ هل جئت لتقتلني؟

: (يستجمع شجاعته، وينظر إليها) ما فعلته يا أم فطيم.. فطيم. ولهذا كلفوك أن تقتلني، وتدفع هذا الشيء الفظيع؟

عدنان

: لم يكلفني أحد. كلهم نسوك، واستأنفوا حياتهم، وكأنك لم تكوني. أنا وحدي.. لم أستطع أن أنسى، ولم أستطع أن أتغلب على شعوري بالفظاعة والعار.

عدنان

: أتهم حساسيتك يا بنتي. لا أريد أن أؤرؤ نفسي، ولا أحب أن تكون بيني وبين ابني محاجة ومقاضاة. إذا كنت مصمماً، فإني لن أتوسل، ولن أعارض قدرتي.

سواء

: على كاهلي حمل ثقيل، عوق حياتي، واستنفذ قواي.

عدنان

: لم يخطر لي أنك تعاني كل هذا العذاب. كم صليت، وتوسلت إلى الله، كيلا يجعل هذه السعادة المتأخرة مصدرأ

سواء

لشقاء أحد!

عدنان

: أنا أحمل هذا الشيء الفظيع، وأنت تتقنين في السعادة! (يتصلب وجهه، ويصوب المسدس نحو أمه)

سواء

: نعم يا بنتي.. في خريف عمري، وهبني الله بعض السعادة. لا أستطيع أن أشرح لك، لأن ذلك يستغرق عمراً كاملاً.

عدنان

: (ما زال يصوب مسدسه، بتصميم واضح) هنا فطيم.. (تحمقه الوجه) من يستطيع أن يهزم أن قلبي عادل؟ ولكن ما أهمية العدل، إذا كان قلبي يمكن أن يداوي جروح كرامتك

سواء

ورجولتك. اسمع يا بنتي.. لن أكذب عليك، وأقول.. إني لا أخاف الموت. ولكن إن جئت بعد مطاردة طويلة، كفي تقلتي، فاجمع قواك، وافعلها قبل أن تتأكل عزيمتك. (يشد عزيمته، ويسدده) هيا يا بنتي.. صباح اليوم اغتسلت، وأنا جاهزة للموت.

عدنان

: (توتجف يده، وتتفرغ عيناه بالدمع) أتاه..

سواء

: لن ألومك يا ولدي، ولن ألعن الحليب الذي غذأك صغيراً. ارفع يدك، وأطلق رصاصتك.

عدنان

: إنك تستلين مني عزيمتي.

سواء

: إني أحاول أن أساعدك يا بنتي. إذا لم تقتلني، فإن الحجل والخوف والعجز، كل ذلك سينمو، ويتحول في داخلك إلى أورام تقسد حياتك.

عدنان

: (وهو ينهض بعنف) هذا مستحيل.. هذا مستحيل..

سواء

: (تمسكه، وتحاول أن تمنعه من الخروج) انتظر.. انتظر يا بنتي.. تعال.. واسند رأسك على صدري. هل تذكر كم كنت تحب النوم على صدري؟

عدنان

: (وهو يظلم منها) اتركيني.. اتركيني..

سواء

: إني لا أراوغ، وإني أعني كل كلمة قلتها لك. اقلني ولا

عدنان	تقتل نفسك. نعم.. اقتلني ولا تقتل نفسك. : (وهو يدفعها) دعيني يا أم.. (يخطئ عمولة ومضرة يخرج من الباب، ويختفي)	الحفيد	: كانت نيران الحرب قد امتدت إلينا. انقلبت أوضاع، وتواترت أوضاع جديدة. ومن الغريب أن تعصف هذه التفجرات بامرأة تثلث ذكاء وخبرة، مثل خالتي سلمى.
سناء	: عدنان.. عدنان.. (تترامى ركباتها، وتهالك على الأرض منفجرة بالكاء، تختفي الإضاءة.)	سلمى	: أتعبتني يا بن أخي.. قلت لك لا أحب أن أستعيد الماضي.. أو أن أتذكر سوائه المضحجة.
		الحفيد	: هو سؤال واحد يا خالتي.
		سلمى	: وما هو هذا السؤال؟
		الحفيد	: هل كنت تتعاطفين مع الفيشيين؟ أم أنك أخطأت الحساب، ولم تعرفي كيف تبتكين ولايك في الوقت المناسب؟
		سلمى	: أتظن خالتك طرطورة يا ابن الخرساء؟ كان الفيشيون أصدقائي، ويقضون ساعات اللهو، وأحياناً ساعات الجيد في صالوناتي. كانوا هم الفرنسيون بالنسبة لي. وكنت بينهم الملكة، التي يشاطرونها أسرارهم، ويقضونها في ترتيب ما يحتاجونه من لهو ومتعة. كانت لي مملكة، وكنت أتلاًلأ فيها.
		الحفيد	: لو عرفيت كيف تتغيرين ولأءك، لبقيت الملكة والمملكة.
		سلمى	: لا أحب الإنكليز، ولا أولئك الذين كانوا يرحفون وراء الإنكليز، ويتشددون بأنهم فرنسا الحرة.
		الحفيد	: هل أدورك حين أوقفوك، واتهموك بالعمالة لحكومة فيشي؟
		سلمى	: أدوني..! كان التحقيق مسخرة، وبعد يومين أطلقوا سراحي، كي يواروا بحجلهم، ويتقوا سلاطة لساني.
		الحفيد	: وماذا فعل أحرك الملك؟
		سلمى	: لا تذكرني به.. ولا أعجب أن يكون هو الذي وشى بي، وحرّض علي. وعلى كلي.. منذ تلك الحادثة انقطع ما بيني وبينه.
		الحفيد	: وفي تلك الفترة، بدأت خالتي سلمى تفقد إعجابها

(٢٢)

فصل الجناح المكسور وبناء السور

بالفرنسيين، وتبدّل اتجاه حماسيتها. صارت تمجد لبنان، وكلّ ما فيه.. أرضه وسماعه وأرضه. وتبناها بالتبولة والكبة التينة ومازة العرق. كذلك أفلعت عن الفرنسية، وتحولت إلى الهديل بالدارجة اللبنانية، المطلّعة بقليل من الكلمات والعبارات الفرنسية.

أما خالي الملك فكانت مملكته تزدهر وتزدهر.

- (داخل البيت، تتمدد سناء على ديوانة. عينها ساهمتان، ووجهها يظوفه أسن عميق وشفاف. يدخل حبيب بحركة خفيفة، مقترباً من سناء. تنتهي من الخارج أصوات المعماري وعماله، وهم يفاوضون المكان)
- حبيب : أنهوا اللمسات الأخيرة، واكمل بناء السور. (يجلس قربها، ويمسح على شعرها) لماذا لا تنهضين؟ بردت القهوة.
- سناء : إني فارغة.. وقلبي فحمة سوداء.
- حبيب : كلما رأيت هذه الكتابة تتوسّد وجهك، أشعر أنني مريض وخائف.
- سناء : بهد اليوم، ستساكننا الكتابة، وعلينا أن نصاد رفقتها.
- حبيب : (يمتف) لا يا سناء.. لن أسمح للكتابة أن تقسد هذا النعيم، الذي نعيشه، والذي بنيت لحظة لحظة، ولمسة لمسة. خذي.. واشربي قهوتك.
- سناء : (وهي تهض، وتتوارل فصجان القهوة) رغم كل ما بذلناه، فقد تسرّب الفساد إلى نعيمنا، ونشر فيه المرارة والفوضى. وهذا السور الذي بنيت، لن يمنع تسرّب الفساد، حتى ولو حوّل هذا البيت إلى قلعة. ذلك عقيب، وما كان ينبغي أن تعاند، وتبنيه.
- حبيب : لا.. بعدما حدث، كان ضرورياً وملحاً أن أبنيه. ومن يدري! لو بنينا في وقته، لتفادينا هذه الهزّة التي تظلل

وجهك بالكآبة.

ساء : لا تستطيع الجدران مهما كانت سميكة وعالية، أن تحجز موجات العمر، وما تحمله من ذكريات ومشاعر وصور. آه يا حبيب.. يبدو أن شعورنا بالاعتناق، وبأننا نلدأ من نقطة طاهرة، وليس لها ذاكرة، لم يكن إلا وهماً بؤدته زيارة.

حبيب

: إنك تترلقن إلى اليأس، دون مقاومة. أمتأ أنهم الصدمة التي تعرضت لها. لا أفهمها فقط، بل أشعر مشها الصاعق في سويدائي. ما بيننا لا يستوعبه ما يُقال عن الروابط والصلات. ما بيننا هو تراوج العصب مع العصب، ونبضة الدم مع نبضة الدم. ما زال درب السعادة طويلاً أماناً. وإن تركنا اليأس يتسلل إلينا، فسنغرق في الوضاعة والرتابة والموت.

ساء

: مرت فترة، اعتقدت فيها أن حياتي الماضية انطوت، وحملتها ربح كريمة إلى عتمة النسيان. أحسست أنني خفيفة، وأني أبداً فعلاً من لحظة شفاقة، وعودها وافر.

حبيب

: وبالفعل، عشنا هذه اللحظة، ولم تكذبنا وعودها. بدأنا تجربة مذهلة، ولا يحق لنا الآن، أن نُجهضها بالخوف والوساوس.

ساء

: في خريف العمر، لا يستطيع المرء أن يربط ماضيه كبقعة ملابس، ويرميها في زاوية الخزانة. انظر كيف يتدافع الماضي مسكاً بتلابيبه! لن يستطيع قلبي بعد اليوم، أن يرفرف طليق الجناحين، لأن عذاب ابني كسر جناحي. وأسأرد عنك، كلما خطر لي هل نطقت ليلى أم لا..

حبيب

: سناء.. يا حبيبتى.. إن الصدمة هي التي تولد هذه الأفكار

السوداء. حين أخذنا قرارنا كان هناك أولاد، وكانت هناك ذكريات. ومع هذا استطعنا أن نعيش كل دقيقة بصورة مبتكرة. وأن نجعل كل الزمن، في ماضيه وحاضره ومستقبله، فضاء من الخيال والعشق والالتهاج. أنكلي هرّة عابرة كي تشعرني بالإحباط، وتدمري كل ما أحرزناه من جمال ودهشة وثراء! كنت أعتقد أن حبنا أكبر من المواضعات العائلية، وأنا تتجاوز المألوف، ونقرب من الفريدة التي تليق بنا. ألم نكتشف جنائن من الأحاسيس الغريبة واللذات المبهورة! ألم ندخل مغاور مكسوة بالخمّل والأحجار الكريمة! ألم نلمس ينباع الخفية، التي يفتش عنها الإنسان طوال حياته فلا يجدها! لا يا حبيبتى.. لا يجوز أن ندع هرّة عابرة تحببنا.

ساء

: ما أشد ضعفي! يكفي أن أصغي إلى السحر الذي يتدفق من لسانك، حتى تنقلب أفكاري، وينبعث في جسدي خدر هادئ ومرحج. أنتظن أننا سنتجاوز هذه الهرّة، ونستعيد نعيمنا؟

حبيب

: طبعاً سنتجاوزها. ولا يقل أن تتخاذل وتسقط، في اللحظة التي نطل فيها على مشارف البهاء!

ساء

: أترى أننا نتقرب من البهاء فعلاً؟

حبيب

: نعم.

ساء

: (وكأنها تحلم) أئن يستغرق الوصول إليه وقتاً طويلاً؟

حبيب

: كدنا نصل إليه. ونحن الآن على مشارف.

ساء

: هل تصف لي هذا البهاء؟

حبيب

: ذات يوم حدثك عن رؤيا فاجأتني بعد دفن زوجتي. رؤيا مذهلة، كانت تجسد كل العلامات الغامضة، والأشواق التي

تستمر في داخلي. هل تذكرين ما حكته لك؟

- سناء : نعم.. أذكره، وإن كنت لم أفهمه جيداً.
حبيب : في ذلك الوقت أنا أيضاً تخلفت، ولم أفهمه جيداً. انغمست في اللذات العابرة، وصار لديّ حريم من البنايا. وكنت كلما غصت في هذا الوحل، شعرت أنني أزداد غواءً واكتئاباً. لم أمتلئ، ولم أعرف فرح الأعراس، التي رأيتها ذلك اليوم تتوقّد في صدري. وفي لحظة واحدة برزت كلّ صلاحي، ورحلُ أهدهد يائساً ذلك الشوق التهمم الذي لن يعرف الارتواء أو الاكمال. كنت أجرجر وجوداً شاحباً ومتداعياً، حين انبثق نُورُك في وجهي. فأدرت على الفور، أنك البهاء، أو أنك السؤ الذي يقود إليه.
- سناء : هذه المبالغات تركبني. ما أنا إلا امرأة عادية أعماها الحب.
حبيب : بل أنت المرأة.. المرأة المكتملة، والمقعدة بالأسرار والخبايا والكنوز. انتظرت طويلاً حتى التفتيك، والآن.. حانت الفرصة كي تغضُ أعتام الأسرار والخبايا والكنوز، ثم تخفي نحو البهاء الذي لا ينفد.
- سناء : إني عاجزة عن فهم أفكارك ومعانيك. هل تريد أن تخفي في نبش ذاكرتي، ومعرفة دقائق حياتي؟
حبيب : لا.. ما كان نبش الذاكرة إلا تدريباً أولياًً.
(بمناقها بلطف. يبدآن بتبادل الحب باسترخاء ونعومة. بينما يأخذ الحوار طابع التداخي الطليق)
- سناء : وماذا تصور لنا؟
حبيب : بدلاً من نبش الذاكرة، أريد أن أسكن فيها.. أريد أن أسكن في داخلك.. أن أسكن في أشعالك.. أن أتفّ على نفسي في رحمتك..
- سناء : أريد أن تكون ابني؟
حبيب : لا.. هذا شيء فقير، ولا نحتاجه. أحلم أنني أجري في
- عروقت.. وأني أتغلغل في أنسجتك.. وأني أئس أهدد خفاياك..
- سناء : أتعلم..! في داخلي صوت ما فتى يكرّز لي، أنك تريد أن تتضمّني من داخلي وخارجي. وأحياناً يبدو أن نهمك لن يشفى، إلا إذا..
- حبيب : (والعناق يزداد حرارة) إلا إذا..
- سناء : إن صوتي الداخلي هو الذي أخبرني.. لن يشفى نهمك إلا إذا أكلتني.
- حبيب : ليتنا نملك تلك الحسارة!
سناء : أتريد حقاً أن تأكلني!
- حبيب : حين أريد المسيح أن يُطعم الناس خبز الله الحقيقي، وأن يجعلهم يصرون نوره الرواج، طلب منهم أن يأكلوا جسده، ويشربوا دمه، وقال.. من يأكل جسدي، ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه. ولو استطعنا لعرفنا طعم الخبز، الذي نفقش عنه منذ ولادتنا.
- سناء : هذا جسدي بين يديك، فهل تمنى أن تجرب؟
حبيب : لا.. ذلك يحتاج إلى لحظة خارقة، ينبغي أن نصلها معاً. وعلى كلّ لا شيء يستعملنا، ففي هذا العش الذي انتحي بعيداً عن الصغار والتفاهات..
- سناء : والذي تحوّل سجنًا. كم أخبرني صوتي الداخلي، أنك لن تستريح قبل أن تبني حولنا سجنًا!
- حبيب : (مع ازدياد اندماجهما في الحب) على أي سجن تتكلمين. هنا فضاء حريتنا. وفي هذا الفضاء، سنبداً تجربتنا الفعّدة. التجربة التي لم يعرفها إلا الحاصّة من البشر. تجربة التوغّل في الحب حتى مطافاته الخلاّية والبهية. سيكون أمامنا درجات ينبغي أن تسلّقها، وكلما تسلّقنا درجة اقترنا من سؤ

سناء : إن رحيمي يؤلمني حقاً.
حبيب : هو ألم عصبي، سيزول عما قليل. (وهو يضئها) المهم..
اهدئي واسترخي.
(تخفي الإضاءة).

الوجود، ومعناه المطلق.
سناء : لا شك أن ما تبصره عجيب وأخاذ، ولكن هل تعتقد أن
بوسعنا الوصول إليه؟
حبيب : نعم.. سنصل إليه. كل شيء مُباح، وكل ممارسة ممكنة. ووقناً
بعد وقت، ستزداد عرباً وانكشافاً وامترجاً، حتى نجد أنفسنا
زفرف في البهاء.
سناء : هل ستكون الطريق طويلة؟
حبيب : ذلك يتعلّق بنا. في هذا الفضاء الدائري والثقي، ستلاصق
كندوتي قز. ومع أتين المتعة وشهيق اللذة، سنحوّل ما في
دواخلنا من الندى والشهوات إلى حرير يفيض مئاً، ويتكوّم
حولنا لامعاً وجميلاً. وحين ينغد من جسدنا الحرير، تتحوّل
فراشتين أو فراشة واحدة. ويريف إيقاعي لطيف، سنطير إلى
الألق، حيث يمكن أن نلامس البيهي والأبدئي.
سناء : إنني أظفوق فوق مياه داخلة.. إنني أجري مع الماء بعذوبة.. هذا
منام العمر.. هذا منامي. أحبتي، ولا توفظني.
حبيب : إننا نبدأ الرحلة، والبيار يمضي بنا.
سناء : ما أمتع اهتزاز الماء تحت ظهري!
(ينغمسان في الحب. شغف وعنف متزايدين. بعد فترة تتدّ عن
سناء أهة محمّلة بالرحب، وتهض مبتعدة عن حبيب)
حبيب : ماذا هناك؟
سناء : (وهي ترهض) لا أدري.. لا أعرف كيف أصد. ذلك! فجأة
انتفض قلبي، وشعرت أن رصاصة تخترق رحيمي.
حبيب : لا تقلقي.. هو مجرد توتر انفعالي، سيبه حشد الصور
والمشاعر التي تختلناها.
سناء : (وهي تبكي) حبيب.. لا أعتقد أننا سننجح.
حبيب : اعتمدي علي، وأنا موقن بالنجاح.

فصل الكوابيس الفاجعة

(غرفة سونيا. تجلس سونيا وحيدة على حافة السرير، شاحبة الوجه، وعاطلة من كل زينة. في عينيها رعب متخثر. بدأ الكلام بصوت متلجلج وبطيء.)

لو أستطيع أن أنام! لو لو أستطيع أن أنسى! خلال عمري القصير.. كم مرة تحمت لو أن أمي لم تلدني، ولم أَرُ أهوال هذه الدنيا! منذ فترة قصيرة، بدأ يتردُّ عليّ أوصاني أخوه سرحان أن أعنتي به. كان يبلو مششاً، تُزعزع كيانه معاناة، توحى بالموت وليالي الشتاء. في البداية تهيئت الاقتراب منه، ولكن خلال وقت قصير، اكتشفت أنه رغم التثنت والمعانة، شديد الحساسية، ويختلف عن أخيه في طيب الممدن والمعشر. كان يأتي كل ليلة.. وكان يتحاشى.. أمر الحياء، أم الطهور.. لا أدري! (تسترخي على السرير) أحياناً يسترسل كل منا في صمته، وأحياناً تبادل من الكلام ما يأتي غفو الحاطر. البارحة.. ملعونة بين الأيام تلك البارحة.. دخل عليّ مرهق الوجه، محتقن النظرات، مهلهل الكيان ومهلهل الثياب أيضاً.

(يدخل عدنان بالهيئة التي وصفتها سونيا، ويوقى على السرير. إن الحوار بينهما بطيء ومقطع)

(وهي تقرب منه، وتمدّ يدين مترددتين إلى كتفيه) يبدو أنك متعب.. دعني أدلك كتفيك وظهرك قليلاً.

سونيا

سونيا

عدنان

سونيا

عدنان

سونيا

عدنان

سونيا

عدنان

سونيا

عدنان

سونيا

عدنان

: (وهو يعد يديها بخشونة) أرجوك يا سونيا..
: لماذا تعذني؟ أريد أن أساعدك.. أريد أن أعطيك..
: إن حضورك يكفيني. أما للمناسبات وتلك الأشياء فإني..
: هل أقتصر إلى الحمادية، أم أنك تجدني ملوثة ومغزّرة؟
(يدير ظهره لها، تتأمله لحظات، ثم تجلس على الجانب الآخر من السرير، وتسود فترة صمت)

: هذا الحلم يُمسك بخناقني.. نعم.. وعدّتهم أن أدربهم على استعمال السلاح.. شباب يفرون حماسة ووطنية، ويبدون العراق. لم أجد في داخلي عزيمته

أو حمية.. فراغ مخجل كالانفلاس المفاجئ.. أتعرفين شيئاً عن تفسير المنامات؟

: قالوا لي مرة.. إذا سميت بالرحمن، ورويت متأمك على عين الشيطان، يذهب ضرره.

: إن الأم كائن عجيب يا سونيا.. هل لك أم؟

: أوه.. ضيقتها منذ سنوات طفولتي الأولى.

: لعلك محظوظة! إن الأم كائن محير، يريك بالخنان صغيرة، ثم يتركك على عطشك عمراً. كائن إن هجرك أحسست بالضياع، وإن غضب أحسست بالرهبة، وإن نظر إليك انكسرت عينك. إن الأم كائن رهيب يا سونيا. نعم.. لم أجد في داخلي عزيمته أو حمية. كيس مليء بالمعجز والرخاوة والفضلات.

: كم أود لو أستطيع أن أحمل بعضاً من معاناتك! لماذا لا أتقياً هذه الصغراء التي توهم الفؤاد وتفسد المزاج؟

: أتقياً.. نعم هذا ما أحتاجه الآن.. يبدو أنني خرجت من البيت.. أي بيت؟ لا أدري! كانت السماء غائمة.. تطلعت حولي، فرأيت أراضي غطتها السيول، وحوّلت ترابها إلى

طين ووحول.. لم يدهشني المنظر، وقلت في نفسي.. هذه بقايا الفيضان، وستظل الأراضي مغطاة بالوحول فترة طويلة. وبينما كنت أتطلع حولي، اكتشفت في أرض مجاورة، خطوط حراستها ما زالت رغم السيول منتظمة، جثة رجل صغير وعارٍ من الثياب. ووجدتني إلى جواره أتأمله، وأعجب من وجوده في هذا المكان. حضرت أمي، ولا أدري متى! كان وجهها محايداً وهادئاً. سألتها.. من هذا يا أمي؟ فأجابتي.. إنه أنت يا بنتي. اندهشتُ وغضبْتُ.. قلت لها.. انظري كم هو صغير وضئيل! فقالت.. في البرد والمطر تقلص بدنه وانكمش.. قلت لها.. هل تمنين أني.. فأجابت بصرامة.. ارفعه واستره، قبل أن يتقاطر عليه الحزون، ويغطيه. ثم استدارت واختفت. كنت مرتبكاً ولا أدري ماذا أفعل. وفجأة.. رأيت سرباً من الحزون، يزحف على الجسد الضئيل والعماري، تاركاً على الجلد أشرطة لامعة من سوائله الرخوة. ثم رأيت حلزوناً طويلاً، تخلص من قوقته، وزحف بمضلات أعضوانية نحو الفم. ورأيت الفم يفرج.. ورأيت الحزون ينفذ في الفم، وشمرت بالليل.. (يخطط على معدته، ويضع يده على فمه) أريد أن أتيتاً.

سونيا : (تسح على شعره بحنان، فيعده يدها بجفاه) قل.. يا رب خذ شؤه، واعطني خيره.. وعلى كل فإن الموت في المنام حياة.

عدنان : كم كنت ضئيلاً وصغيراً وبشعاً!

سونيا : لا.. لا تقل ذلك. إنك رجل كامل، يهفو له القلب.

عدنان : سونيا.. هل تعلمين شيئاً من أجلي؟

سونيا : لن أتردد إذا استطعت.

عدنان : (يخرج مسدسه من قرابه) هل تقبلين أن أضعه في فمك؟

سونيا : (مرتبكة وحائرة) ماذا تنوي؟

عدنان : لست أدري!

سونيا : (كالمؤمنة) أفضل ما نشاء.

(يضع المسدس في فمها، ويحلق كل منهما في عيني الآخر. في يده ريشة ملحوظة. بعد فترة مديدة من التوتر والانفعال، يسحب فوهة المسدس من فمها ببطء شديد)

عدنان : ماذا أحسست؟

سونيا : بعض الغثيان و شيئاً من الرهبة والبرودة.

عدنان : (يوجه المسدس نحو فمه) نعم.. الغثيان.. وشيء من الرهبة والبرودة..

سونيا : ماذا تريد أن تفعل؟

عدنان : لا شيء.. أريد أن أضاعف غثياني، وأن أذوق طعم الرهبة والبرودة.

سونيا : أرجوك دعنا من العبث بالمسدس.

عدنان : سونيا.. أريد أن أستعيد حلمي فساعديني.

سونيا : وكيف أساعدك؟

عدنان : اغمريني بالصمت، ودعيني مع غثياني.

(يضع فوهة المسدس في فمه، ويمد يده الأخرى إلى أسفل يده. بعد فترة تنفجر رصاصاً. تطلق سونيا صرخة محتبسة.)

سونيا : لو أستطيع أن أتألم أو لو أستطيع أن أنسى! خلال عمري القصير.. كم مرة تميت لو أن أمي لم تلدني، ولم أر أحوال هذه الدنيا!

(تختفي الإضاءة.)

فصل الزبدة في الحكمة والقوة

(مقر سرحان. سرحان والحفيد)

الحفيد : في وقت ما، وجدت أنني لا أستطيع تجاهل خالي سرحان نهائياً، فغالبت نفوري، والتقيت به في عربته. لم يكن هناك حوار. بدا وكأنه ينتظر لقائي، كي يفرد أمامي ما استقر عليه من أفكار وِحكم.

سرحان

: اسمع يا بن أختي! فعلاً ما زال العالم غابة، والغلبة فيه لمن هو أقوى. والأقوى في عالم اليوم ليس الرجل القوي العضلات، أو القادر على البطش والعُدوان. بل هو صاحب النفس القوية التي تستطيع في مواجهة هذا العالم، أن تهضم البشاعة والدناءة وكل أشكال الانحطاط. أما الآخرون، وهم الخوّارون وضعاف النفس، فإنهم يترّون من مواجهة العالم كما هو، إلى ملاجئ من الأوهام والخيالات السقيمة. وبالنسبة لي.. هنا هو جوهر الوجود. هناك قلة من الأقوياء تستطيع، أن تنظر إلى فساد العالم ونقصه بعيون مفتوحة وجريئة. وهناك الكثرة التي تراوغ النظر إلى العالم، وتختفي وراء بلورات ملوّنة من الوهم والحلم. الخير والشر، المبادئ والقيم، الصور والمدن المفاضلة.. كلها أوهام، تزيد ضعاف النفس ضعفاً، وتجعلهم يترّون قرب الحياة دون أن يدوقوا تدفقها، وتترّع ثمارها. لا شك أنك تتساءل.. ألم يكن يوسعي أن أفعل شيئاً، لكي أنقذ خالك عدنان من مصيره!

مراراً حاولت أن أغربه بالتخلي عن أوهامه. عرضت عليه أن يكون له كل يوم فَوْج من الحرير، وما تشتهي نفسه من اللعق والمسرات. فازدرياني، وأثر أن يلاحق وهمه الذي أودى به. لا.. ما كان يمكن إنقاذ تلك النفس الخائرة. وخالنك هي الأخرى، ما زالت تجري وراء أوهامها.. من قبل حاولت أن تفرس لبنان، واليوم تريد أن تلبنن العالم. وأنتك تضع صورة أتيك أمامها، وتلقنك آيات الوطنية والتضحية والنضال.

اسمع يا بن أختي! ما بدد عائلتنا، وما يبدد حياة الأغلبية من البشر هو الأوهام. والسؤ في قوتي ونجاحي، هو أنني لم أدع الأوهام تنسرب إلى داخلي. دائماً كنت أحب أن أترّع في وحل هذا العالم، وأن أنظر إليه بعينين قويتين. لذلك فإن النجاح يتراكم فوق النجاح بصورة مجانية، وكأنه جزء عضوي من وجود العالم وحركته.

اسمع يا بن أختي! مهما تقنّع الإنسان، ومؤه حاجاته بالأخيلة والأكاذيب، فإن مدار الحياة الفعلي، سيظل يدور حول الرغيف والترّج. وحقيقة الإنسان النهائية هي الفضلات، ولا شيء إلا الفضلات.

: شعرت أنني لا أستطيع أن أصغي أكثر، فشدت على إيقاع صوته الأنيق والمصقول حتى انتهى لقائي به.

الحفيد

(٢٥)

فصل الهدايا والأحزاف

(في بيت حبيب. كل ما في البيت يوحي بالتداعي والإهمال. سناء وقد تهكت ملامح وجهها، وبدا عليها التحول. تجلس على الأرض وقربها المرأة، التي تبدو عليها هي الأخرى الثلاثة والإعياء)

: (تختلس النظر حولها.. هامة) هل سألتك؟

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

المرأة

سناء

احتواني بينين نفاذتين يكسوهما حزن دفين. اضطريت، وشعرت أني أحتق، وأن هذا الاحتناق ممنع. كم كان ذلك غريباً وجميلاً!

: نعم.. هكذا كانت البداية.

: وأنت.. ألم تكوني شديدة الحماسة والاندفاع؟

: نعم.. وبنلت جهداً كي ينتجح الأمر.

: والآن.. هل تحفدين أننا أخطأنا؟

: لا.. لم نخطئ. كانت هذه الفرصة مصيراً ينبغي أن نتبعه.

: لكن ما يؤلني، هو هذا القشل الذي انتهينا إليه.

: ولماذا فشلنا؟

: أوه.. كررنا ذلك مراراً. هو لديه أشواق وروى عجيبة، لا

تستطيع امرأة ضعيفة وعاجزة أن تفهمها، وتخوض

مجاهلها.

: نعم.. إنني ضعيفة وعاجزة. والمصيبة أن العجز يكمن في

رحمي بالذات.

: كيف فاتنا ما فعلته السنوات بنا. غاض جموحنا في رمال

الأيام، وتسرب فوراننا في التردد والوسواس.

: هذه هي المشكلة. نعم.. هذه هي المشكلة. إن عجزني في

رحمي.

(تتوارى المرأة.. يدخل حبيب، حاملاً صينية عليها صحن من

الحساء وخبز وطعام معلب. يضع الصينية أمام سناء)

: حضرت لك الحساء الذي تحبته. تقريباً أنت لا تأكلين شيئاً.

(يتاولها الملعقة) هيا أمسكي الملعقة، وابدئي قبل أن يرد

الحساء.

: (هامة) ألسنت جائعة؟ منظر الطعام يقلب معدني.

: ألم تصبني من الحديث مع نفسك؟

- سواء : هل سمعتني أتحدث مع نفسي؟
- حبيب : في الفترة الأخيرة أراك دائماً تمتصين وتوميئين، وكأنك تحاورين شخصاً يجلس قربك. هل عدنا منقراً أن نتحدثني معي؟
- سواء : لماذا تقول ذلك؟
- حبيب : لأنني أراك تلتفتين حول نفسك أكثر فأكثر، وتتحاشين الكلام معي. هل نثر حبلك إلى هذا الحد؟
- سواء : (هامسة) أنظنين أن حيناً فتر؟ لا.. لم أحب رجلاً قبلك، ولن يكون هناك في حياتي أحدٌ بعدك.
- حبيب : (يمسك يدها، ويقلبها باستان وحسان) وإذن.. لماذا تضيع الفرصة، وتستسلم بقاء للخيبة والفشل؟
- سواء : لأنني ضعيفة وعاجزة.. والعجز في رحمي يا حبيب.
- حبيب : (محاولاً أن يُطعمها يده) ما تحببته في رَحِمِك، لا يعدو شيئاً من التوثر والوهن. هل تحتين أحياناً بالندم؟
- سواء : (هامسة) هل أحس بالندم؟ لا.. لست نادمة.
- حبيب : إنك تمشين في صدري أمالاً كادت أن تموت. سنحاول.. سنحاول من جديد. وأمامنا مروج من الغيوبات المسكرة، والوعود المدهشة. لا يحتاج الأمر جهداً كبيراً. كما تخلمين خذائك، انخعي الذاكرة والأفكار والشجون، واسترخي.
- سواء : ليثني أستطيع أن أسترخي.. الألم في رَحَمِي يا حبيب.
- حبيب : هو ألم كاذب، فاهمليه.
- سواء : لا.. هو العجز.. وهو المماناة المؤكدة التي لن تزول. اكتملت دورتي.. وعلي أن أرتب ما تبقى من أيامي.
- حبيب : يا رب.. من أين جاءتك هذه الكآبة المسمومة؟! ماذا أستطيع أن أفعل؟! أتريدني أن أهدم السور؟
- سواء : فات الأوان.

- حبيب : لم يفت الأوان بعد. يمكن أن أهدم السور، وأن أخلع النوافذ والأبواب إن كان ذلك يخفف كاتبك.
- سواء : أنت تفكر في خلع النوافذ والأبواب، وأنا يشغلني ترتيب قبري.
- حبيب : (بعنف) لا تذكر الموت والقبور.
- سواء : (هامسة) هل سألتك؟ الآن تذكرت.. هل أجد قبراً لي في الشام؟
- حبيب : ماذا تمتصين؟ وأي كلام يجري بينك وبين نفسك؟ أرجوك لا تسدي الحوار بيننا. (يضغطها إليه بحتان، فلا تبدي أية استجابة) وصلنا العتبة يا سواء.. كبدنا نغز حريتنا، وندخل زمناً آخر. كبدنا نصل إلى سريرة الوجود وهذا الكون.
- سواء : (هامسة) نعم.. أريد أن أموت وأدفن في الشام. أتماعديني يا حبيب!
- حبيب : اطلبي وأنا جاهز..
- سواء : أريد أن أموت، وأن أدفن في الشام.
- حبيب : (يعتد عنها متقيضاً) آتيت مصره على أن تتلاحق نحو الكآبة والموت.
- سواء : أعرف أن دورتي اكتملت يا حبيب. أما أنت فلماذا لا تتركني، وتبدأ الحياة من جديد.
- حبيب : (شاداً، كأنه يتحدث نفسه) كنت أمل وأكابر.. ولكن ما فائدة المكابرة! أنا أيضاً خارت قواي، وتسأل الموت إلى داخلي.
- سواء : هل تلومني؟
- حبيب : لا أحد منا يستطيع أن يلوم، أو يعاتب الآخر.
- سواء : (تدفع بحركة مفاجئة نحوه. تمسك وجهه يديها، وتقبله ما كان يجنب أن تفشل.

(٣١)

فصل الملاعب والخواتم

الأراجوز : وفرقة الأراجوز في الساحة. وهي مؤلفة كما رأينا من الأراجوز والصبية والشاب والصغير عازف الهارمونيك. يبدأ المشهد بعزف مرح على الهارمونيك)

الأراجوز : وتفرّج يا سلام.. وتفرّج يا سلام وفي بيروت حكايات أكثر من الشام نهر يجري حاملاً الغرائب والخيريات ومسالك الناس المتعثرة..

الصبية : كانت الناس تتمايل..

الأراجوز : وكانت الأيام مخمورة.

الشاب : (وهو يشخص الحفيد) أردت أن أجد الدئيل، وأعرف الحقيقة.

الأراجوز : وتفرّج يا سلام..

على الشاب الغزو الذي يبحث عن إبرة في مزبلة.

الصبية : ما هي الحقيقة؟

الأراجوز : إبرة ضاعت في مزبلة..

الصبية : هناك روايات وأخبار عن الحقيقة.. أما الحقيقة..

الأراجوز : فإنها إبرة ضاعت في مزبلة..

(فواصل هارمونيك)

الشاب : وجدت الدئيل دمايل، والطريق إلى الحقيقة مناهات وفجوات. فلم أجد أمامي إلا أن أتخيل، وأركب المشاهد. وبدلاً من الحقيقة، أعدت صياغة العائلة في رواية.

حبيب : (بشغف ولهفة) نعم.. ما كان يجب أن نفضل. (يحاول حبيب أن يطيل العناق، وأن يطوّر هذه الإندفاع الحميمية. لكن سناء تتخلّص منه، وتعود إلى مكانها، وهي تضغط يدها على أسفل بطنها)

سناء : إني عاجزة.. إني عاجزة. (يهمّ صمت مديد)

سناء : (هامسة) في لحظة واحدة انتفض الألم في رجلي. ولم يبق إلا أن ترتّب الموت والقبير.

المرأة : (هامسة من كمونها) هل سألتك؟

سناء : عم؟

المرأة : لم أعد أذكر. (تخطي الإضاءة)

- الأراجوز** : ولا توجد يا ولدي إلا روايات وأخبار عن الحقيقة.
- الصبية** : وحين تتخمر الرواية في أفواحننا مع طول الأداة، نشعر أننا نجد التعاطف والتواصل والحقيقة.
- الشاب** : ألم يكن معيماً أن أحول عذابات العائلة ومآسيها إلى حكاية الأراجوز
- الأراجوز** : الحكاية وحدها هي التي تخفف العذاب، وتداوي الجروح. وحين تعلم الإنسان كيف يحول مصائبه إلى حكايات، تنقاسها الأذان والرياح والأزمان، كان يكشف بلسماً سحرياً للجروح والآلام..
- الشاب** : إذن.. تلك هي الرواية.
- الأراجوز** : وتفترج يا سلام..
- الشاب** : كنت يتيماً، حين غابت أُمِّي يزمن. عادت بعدهما ومعها جدتي.
- الصبية** : (تجذب الصبية الولد، وتجلسه في حضنها)
- الصبية** : (وهي تشخص ليلي) في ٢٩ أيار ١٩٤٥ وكان عمرك ستين ونصف، استشهد أبوك شامل السيروان مع حامية الدرك، التي أريدت، وهي تتدافع عن البرلمان ضد القوات الفرنسية، التي كانت تريد السيطرة عليه. إليك أن تتسى هذا التاريخ. في ٢٩ أيار سنة ١٩٤٥..
- الولد** : لن أنساه يا أُمِّي.
- الأراجوز** : في ٢٩ أيار ١٩٤٥ استشهد البطل الشاب..
- الشاب** : في ٢٩ أيار ١٩٤٥ غدوت يتيماً.
- الولد** : (فاصل هارمونيكا)
- الصبية** : بعد وفاته كادت اللوعة أن تقتلني، واتفقت لساني انعقاداً حسبيته لن يزول حتى مماتي.
- الصبية** : (تصوّت الصبية، ويطبقات مختلفة تصريخاً مهلاً بالشجي والحزن.. وكأنها تبرز قدراتها الصوتية. ينضم إليها الولد

- الأراجوز** : وتفترج يا سلام.. على المآسي والأحزان.
- الصبية** : نعم.. اتفقنا لساني، وكادت اللوعة أن تقتلني. ولكن حبيبي لم يتخل عنني. اسمع يا بني.. ما أنت يتيم، لأن أبك يرافقتنا في كل شيء، مرافقة المقيم.
- الشاب** : أوه.. لا تكثروا من الهزارات، ولا تملّوا النص بالإضافات.
- الصبية** : كل إنسان ولا سيما الفنان، يحب أن يضيف لمسة خاصة على الرواية.
- الأراجوز** : هيا.. هيا.. وفري علينا الشباهي والحكيم، وتابعي.
- الصبية** : خلال أربعة أشهر وسبعة عشر يوماً، كان يأتيني شامل السيروان في المنام، ويقول لي..
- الأراجوز** : (بصوت فخم وأمر) لا تجعلني موتي مضاعفاً، وتذكري أن طفلنا يحتاج عتابك.
- الصبية** : وكان ينتظر قليلاً، ثم يبدو ظهره ويمضي. وكنت أحاول أن أناديه، فلا يطاوعني لساني. فأبكي في نومي، وأستيقظ على صراخي الأبخ. وبعد أربعة أشهر وسبعة عشر يوماً، رأته وكأننا في تلك الغرفة، التي قضينا فيها ليلتنا الأولى في شتوة. كان يرتدي الملابس نفسها، وكان يفيض رقة وحناناً. ضمني، وقال لي.. من أجل الحب وإبنا انطلق.. ونطقت. ثم استيقظت، ووجدت لساني طليقاً.
- الأراجوز** : (فاصل هارمونيكا)
- الأراجوز** : وتفترج يا سلام..
- الشاب** : وأذكر أن جدتي أصوت أن يمدّ فراشها على الأرض. وخلال فترة لا أعرف كم امتدت، تموّدت أن أراها دائماً متمدة على ظهرها، ويدها معقودتان فوق بطنها. وكانت لا تكف عن التتممة، وقليلاً ما تأكل أو تتحدث.

- الصبية : مرة قالت لي.. أشعر أن داخلي مليء بقطن أبيض ومندوف.
بياض يُرهب ويُبهز. لا أستطيع أن أصلي أو أبتهل. ابتهلي لي.. إن كنت أحتاج رأفة أو مغفرة.
- الشاب : أكانت جدتي بحاجة إلى الغفران؟
- الصبية : الله أعلم..
(ضربة هارمونيكا)
- الشاب : علام الغفران ومن؟
- الصبية : الله أعلم..
(ضربة هارمونيكا)
- الأراجوز : وتفزع يا سلام..
في كل كلمة حكمة راجحة
ينبغي أن تدركها العقول النابهة
- الشاب : لا.. لم أفكر في مسألة الغفران، ولا أعتقد أنها ضرورية.
(يهدو عزف الهارمونيكا عذباً، ويتواصل فترة بعد نهاية الحوار)
- الأراجوز : وتلك هي الرواية.
- الصبية : كانت الناس تتمايل..
- الشاب : وكانت الأيام مخمورة..
- الأراجوز : نهر يجري حاملاً الغرائب والخيريات ومسالك الناس
المتثرة..
(يدور وهو يردد، دون أن يطفى صوته على عزف الهارمونيكا)
- وتفزع يا سلام.. وتفزع يا سلام.
(تختفي الإضاءة.)

نهاية

□

□ القراءة زاد المحرفة ، والتفكير .. لتسخير المحرفة

□

□

علي مولا